آداب المريد والمراد
وآداب الصحبة
وحسن الظن في الإخوان

تأليف

الإمام العلامة العارف بالله

تقي الدين أبي بكر بن داود القادريّ الحنبليّ

(ت: 806 هـ)

قدس الله تعالى سره ونفعنا به في الدارين

تحقيق وتخريج وتعليق

ابن حرجو الجاوي

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدى إليه من أناب، والصلاة والسلام على نبينا محمد خير العباد، صاحب فصل الخطاب، وعلى آله وصحبه أولي الألباب، الذين وهبهم الله تعالى جميل الآداب، أما بعد:

فإن علم التصوف شأنه كشأن العلوم الشرعية الأخرى التي دوت بعد انقضاء عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو علم قديم اشتهر قبل القرن الثاني، خلافا لمن يدعي أنه ليس من طريق السلف، ولم يرتضه لا سلف ولا خلف. فقد بين الإمام القشيري (ت: 465 هـ) – رحمه الله تعالى– أن المسلمين بعد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؛ إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم: «الصحابة»، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة «التابعين»، ورأوا ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم: «أتباع التابعين». ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: «الزهاد» و«العباد»، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهدا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم «التصوف»، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة[1].

وقال الإمام ابن خلدون (ت: 808 هـ) رحمه الله تعالى: "هذا العلم (أي: التصوف) من العلوم الشرعية الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة

---

[1] انظر: الرسالة القشيرية (34/1).

وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية و أصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة".[2]

وينبغي أن يعلم أن العلماء سلفا وخلفا قد عرفوا هذا الفن بتعاريف عديدة كثيرة، غير أن جماع الكلام في هذا العلم إنما يدور على شيء لا يختلف فيه وهو تهذيب النفوس وإصلاح الآداب بين العبد وربه، فهو بالنظر إلى هذه الحقيقة يعد الغاية الأسمى التي لأجلها أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3]. فالطريقة في التصوف لا يشك في أنها مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما بينها واحدا واحدا دينا فقال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[4]. فالدين كما في هذا الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بمقام الإحسان الذي هو الطريقة فدينه ناقص.

فالتصوف الذي هو علم السلوك والآداب إذن مصدر سعادة العباد السرمدية، ومفتاح استقامة الدنيا والآخرة. ذلك لأنّ الآداب كما قاله الإمام الجاحظ (ت: 255 هـ) رحمه الله تعالى: "إنّما هي آلات تصلح أن تستعمل في الدّين وتستعمل في الدنيا، وإنّما وضعت الآداب على أصول الطباع. وإنّما أصول أمور التدبير في الدّين والدّنيا واحدة، فما فسدت فيه

[2] انظر: مقدمة ابن خلدون (281).

[3] رواه جماعة منهم البيهقي في السنن الكبرى (21301) من حديث أبي هريرة.

[4] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (1) من حديث عمر بن الخطاب.

المعاملة في الدّين فسدت فيه المعاملة في الدنيا، وكلّ أمر لم يصحّ في معاملات الدّنيا لم يصح في الدّين. وإنّما الفرق بين الدين والدّنيا اختلاف الدارين من الدّنيا والآخرة فقط، والحكم هاهنا الحكم هناك، ولولا ذلك ما قامت مملكة، ولا ثبتت دولة، ولا استقامت سياسة. ولذلك قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 72]".[5]

هذا، ثم نشأ في الآونة الأخيرة طائفة من الغلاة نسبوا أنفسهم إلى المذهب الحنبلي، وأنكروا هذا العلم ونبذوه ورأوا أنه من البدع، وهي كلها ضلالة عندهم. فهؤلاء كثيرون في هذا الزمان، ومنشأ هذا الاعتقاد الكاسد جهلهم بالتاريخ الإسلامي، وعدم تصفحهم لسير العلماء الجهابذة سلفا وخلفا. فالحنابلة على سبيل الخصوص لو تصفحنا كتب التواريخ والتراجم والطبقات لوجدنا أن أكثرهم هم الزهاد المتصوفون.

قال الإمام ابن رجب الحنبلي (795 هـ) رحمه الله تعالى: "هذا المذهب (أي: الحنبلي) إنما ظلمه أصحابه لأن أصحاب أبي حنيفة والشافعي إذا برع واحد منهم في العلم تولى القضاء وغيره من الولايات. فكانت الولاية لتدريسه واشتغاله بالعلم. فأما أصحاب أحمد: فإنه قل فيهم من تعلق بطرفٍ من العلم إلا ويخرجه ذلك إلى التعبد والتزهد لغلبة الخير على القوم، فينقطعون عن التشاغل بالعلم.[6]

ولقد صدق الإمام، فإننا إذا تصفحنا كتب التراجم والطبقات وجدنا الحنابلة هم الصوفية. حتى من قيل بأنه رفض التصوف بالكلية كالشيخ ابن تيمية (ت: 728 هـ) وتلميذه

[5] انظر: الرسائل (70).

[6] ذيل طبقات الحنابلة (348/1).

ابن القيم (ت: 751 هـ) رحمهما الله تعالى فإنهما بعد تحقيق أحوالهما وسبر كتبهما وجدنا أنهما من المتصوفين كذلك، ويثبتون كيان هذا العلم كعلم مستقل. فعلى سبيل المثال قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وأما الصوفية فهم يثبتون المحبة، بل هذا أظهر عندهم من جميع الأمور، وأصل طريقتهم إنما هي الإرادة والمحبة، وإثبات محبة الله مشهور في كلام أوليهم وآخريهم، كما هو ثابت بالكتاب والسنة واتفاق السلف".[7]

وقال: "وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة، وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون، وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين وأئمة التصوف أن الله محبوب لذاته محبة حقيقة".[8]

وأما تلميذه الشيخ ابن القيم فكتابه «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» لأبين دليل على تصوفه وإحاطته به. ففيه تحقيقات في بعض مقامات الإسلام كالتوبة ونحوها مع حكايات المذاهب بدلائلها مما لا يوجد في كتاب غيره.

ومما لا ينكر عليه أن كثيرا من العلماء سلفا وخلفا قد ألفوا في هذا الفن كتبا كثيرة مفردة تبين آداب السالكين لابتغاء مرضاة رب العالمين، ومن أفضلها هذا الكتاب المسمى «آداب المريد والمراد» تأليف العالم الحنبلي المشهور في زمانه، فهذا الكتاب أبين دليل على بعض من ديدانه إثارة الفتن بين المسلمين في الآونة الأخيرة حيث زعموا أن الحنابلة ممن نبذوا التصوف، بل منهم من يزعم التصوف ليس من الإسلام في شيء، وإنما هو مستورد من دين

---

[7] انظر: مجموع الفتاوى (357/8).

[8] انظر: التحفة العراقية (68).

الكفار. وهذا خطأ محض لا يصدر إلا ممن لم يتصفح التاريخ الإسلامي المجيد كما سبق. فقد بين المصنف في هذا الكتاب جملة آداب يجب أن يسلكها مريد ومراد[9] ممن أراد الوصول إلى الرب عز وجل، ففصل مؤلفه كثيرا مما يتعلق بآداب السالك مع المعبود، وآدابه مع العباد.

ولما تبينت لي أهمية هذا الكتاب ورأيته لا يزال على صورته المخطوطة، لأنه -فيما أعلم- لم يكن مطبوعا من قبل، خطر ببالي تحقيقه وإخراجه من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات. وقد اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على نسخة خطية مصورة فريدة وقعت في 55 ورقة متوسطة، وهي نسخة كاملة غير أن فيها تحريفات كثيرة، وسقوطات عديدة، وخاصة فيما يتعلق بالنقط، فاجتهدت في ضبطها بحسب الإمكان. وهذه النسخة كما ظهر من نهاية الورقة انتهى نسخها نهار الأحد الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة خمس وستين وألف (1065 هـ) على يد الشيخ أحمد بن علي الجبلي رحمه الله تعالى.

ومما عملته على هذا الكتاب أيضا أني صدرته بمقدمة فيها ذكر منهج التحقيق، ونموذج صور النسخة الخطية المستعان بها، وترجمة مؤلفه. كما أنني بينت بعض الأخطاء والأوهام والتحريفات التي وقعت في النسخة الخطية، وهي كثيرة جدا، يمكن القارئ أن يلاحظها بنفسه في الهامش. وخرجت الآيات الموجودة في الكتاب بعد وضعها بين علامة ﴿ ﴾ بذكر اسم السورة ورقم الآية. وخرجت كذلك نصوص الأحاديث والآثار بوضعها بين

[9] والفرق بين المريد والمراد عند القوم: أن المريد هو المبتدئ، والمراد هو المنتهى، أو المريد الذي نصب بعين التعب وألقى في مقاساة المشاق، والمراد الذي لقي الأمر من غير مشقة، وسنة الله مع القاصدين مختلفة؛ فأكثرهم يوفقون للمجاهدات، ثم يصلون بعد مقاساة اللتيا والتي إلى سني المعالي، فكثير منهم يكاشفون في الابتداء بجليل المعاني، ويصلون إلى ما لا يصل إليه كثير من أصحاب الرياضات، إلا أن أكثرهم يردون إلى المجاهدات بعد هذه الأوقات؛ ليستوفي منهم ما فاتهم من الأحكام، يعني من أحكام آداب أهل الرياضة. انظر: بريقة محمودية (3/ 100).

علامة « »، وعزوها إلى مظانها من المصادر الأصيلة في الهامش، وإذا قلت: "رواه جماعة" معنى ذلك أن الحديث رواه أكثر من ثلاثة حفاظ، ثم ذكرت راو أو راوين عند تخريجه روما للاقتصار. وعزوت كذلك نقولات العلماء والمعلومات التي ضمنها المؤلف فيه إلى مصادرها الأصيلة بعد وضعها بين علامة كذا " ". كما أنني ترجمت للأعلام –غير الصحابة– الذين ورد ذكرهم فيه ترجمة وجيزة بذكر الاسم وسنة الولادة والوفاة وبعض الكتب التي ألفهوها. ووضعت فهرس الموضوعات في آخر الكتاب.

هذا، والله تعالى أسأل، وبنبيه صلى الله عليه وسلم أتوسل، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وينفع به النفع العميم، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه في قدس 26 رمضان 1441 هـ

ابن حرجو الجاوي

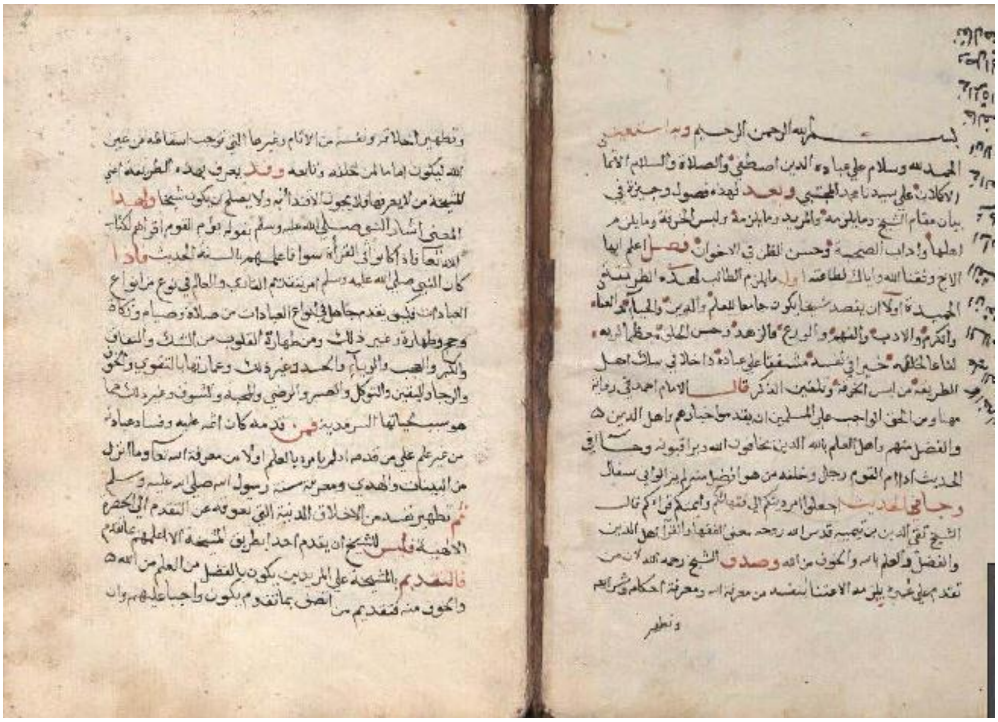
– جعل الله تعالى يومه خيرا من أمسه–

نماذج صور النسخة الخطية المستعان بها

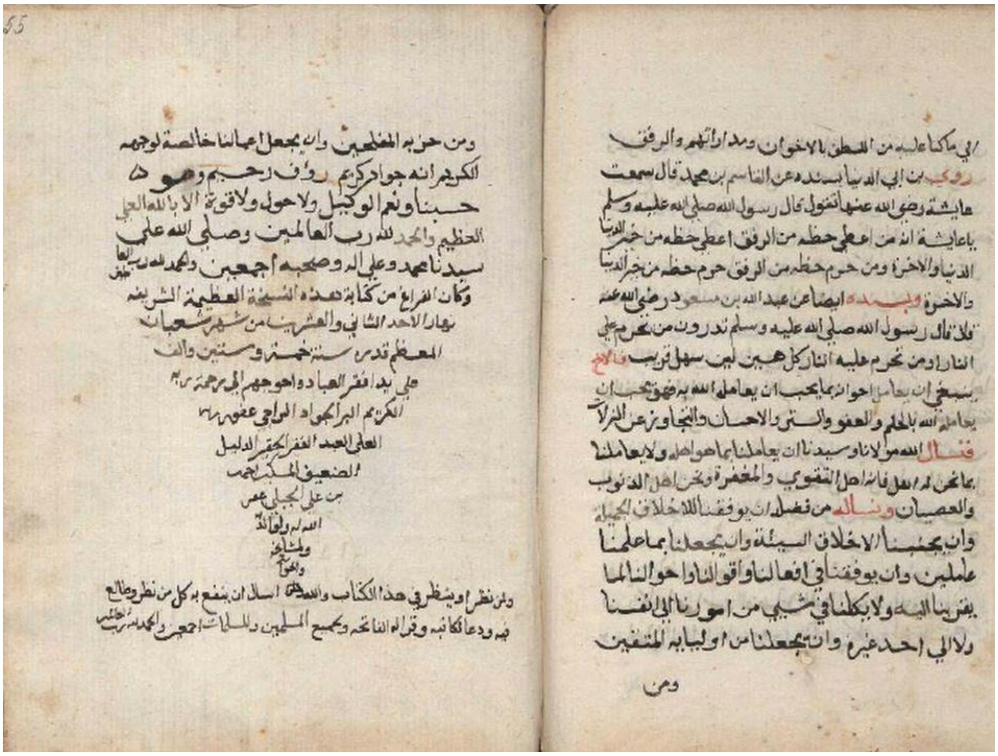

V248

كتاب اداب المريد والمراد واداب
الصحبة وحسن الظن في الاخوان تاليف
شيخنا الامام العالم العامل العارف
المحقق صاحب الكرامات الظاهرة
والاحوال الفاخرة والمقامات
السنية والانفاس القدسية
تقي الدين ابي الصدق
ابي بكر بن داود
الحنبلي
الصالحي مسكنا القادري البسطامي مذهبا طريقة بلغه الله في الدارين
جميع اماله وبلغنا ببركته نهاية العطا من انواع نعمه وافضاله ووفقنا
لاسباب دوام رضاه وحسن اقباله انه على ذلك قدير وبعباده لطيف
خبير بصير

صورة ورقة العنوان من النسخة الخطية



صورة الورقة الثانية من النسخة الخطية



صورة الورقة الأخيرة من النسخة الخطية

ترجمة الإمام العلامة العارف بالله

تقي الدين أبي بكر بن داود القادري الحنبلي

(ت: 806 هـ)

قدس الله سره ونفعنا به في الدارين

اسمه:

هو: أبو بكر بن داود، تقي الدين، أبو الصفا، الدمشقي، الصالحي، الحنبلي، القادري، ويعرف بابن داود.

نشأته العلمية:

تتلمذ الشيخ تقي الدين على جماعة جهابذة منهم: الشيخ الشهاب أحمد بن العلاء أبي الحسن علي بن محمد الأرموي الصالحي، ولقي بآخره الشيخ الشهاب بن الناصح الشافعي (ت: 804 هـ)، ولبس الخرقة البسطامية من الشيخ عبد الله البسطامي الشافعي (ت: 785 هـ)، وحج وزار بيت المقدس.

تلامذته:

أنشأ الشيخ تقي الدين زاوية حسنة بسفح قاسيون فوق جامع الحنابلة. وقد تسلك به غير واحد، منهم: ابنه الشيخ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن الحنبلي القادري الدمشقي (782- 856 هـ) صاحب «تحفة العباد وأدلة الأوراد» و«نزهة النفوس والأفكار في خواص الحيوان والنبات والأحجار» و«الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و«تسلية الواجم في الطاعون الهاجم» و«فتح الإغلاق في الحث على مكارم الأخلاق» و«مواقع الأنوار ومآثر المختار» و«الإنذار بوفاة المصطفى المختار» وغير ذلك.

كراماته:

وقد أثرت عن الشيخ تقي الدين كرامات عديدة. فيحكى: أنه دخل وابنه معه كنيسة يهود بجوبر في يوم سبت، وعلى منبره خمسة رجال من اليهود، فقال الشيخ أبو بكر: لا إله إلا الله، فانهدم بهم المنبر، وسجدوا بأجمعهم. كل ذلك مع إلمامه بالعلم واتباعه للسنة.

قال الشيخ أبو ذر سبط ابن العجمي (المتوفى: 884هـ) رحمه الله تعالى: "وبلغني أنه لما زوج ولده الشيخ عبد الرحمن صنع طعاما للناس، ففرغ الطعام، فأمر الفقراء بإدخال الزبادي إلى مكان خال، ثم أغلقه، ثم أمرهم بإخراج الأواني، فأخرجوا، فإذا هي ملآى بالطعام". اهـ

ثناء العلماء عليه:

قال عنه الشيخ أبو ذر سبط ابن العجمي (المتوفى: 884هـ) رحمه الله تعالى: "هو الشيخ الصالح الخير. كان معدودا في الصالحين ... وكان على طريقة السلف. وله المام بالعلم". اهـ

قال عنه الشيخ ابن العماد الحنبلي (ت:1089 هـ) رحمه الله تعالى: "الشيخ الكبير الولي الشهير العارف بالله تعالى... المسلك المخلص الفقيه المتين ... كان معدودا في الصالحين، وهو على طريقة السنة ... وله إلمام بالعلم". اهـ

تصانيفه:

1) قاعدة السفر.
2) الوصية الناصحة
3) الدر المنتقى المرفوع في أوراد اليوم والليلة والاسبوع.
4) النصيحة الخالصة.
5) الأغفال فِي غَرِيب الحَدِيث.
6) آداب المريد والمراد. سمعه من مؤلفه ولده بطرابلس سنة خمس وثمانمائة. وهو هذا الكتاب الذي أحققه وأقدمه بين أيدي القراء الكرام.

وفاته:

توفي الشيخ تقي الدين في سابع عشري رمضان، سنة ست وثمانمائة (806 هـ)، ودفن بحوش تربته من جهة الشمال قريبا من الطريق. قال الشيخ ابن العماد رحمه الله تعالى: قال الشيخ إبراهيم بن الأحدب في ثبته: "والدعاء عند قبره مستجاب". رحمه الله رحمة واسعة ونفعنا به في الدارين.

مصادر ترجمته:

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (11/ 31).
- معجم المؤلفين (3/ 61).
- هدية العارفين (1/ 236).
- كنوز الذهب في تاريخ حلب (2/ 249).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب (7/ 57).

نص محقق لكتاب

آداب المريد والمراد
وآداب الصحبة
وحسن الظن في الإخوان

تأليف

الإمام العلامة العارف بالله

تقي الدين أبي بكر بن داود القادري الحنبلي

(ت: 806 هـ)

قدس الله تعالى سره ونفعنا به في الدارين

تحقيق وتخريج وتعليق

ابن حرجو الجاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد المجتبى. وبعد: فهذه فصول وجيزة في بيان مقام الشيخ، وما يلزمه، والمريد وما يلزمه، ولبس الخرقة وما يلزم أهلها، وآداب الصحبة، وحسن الظن في الإخوان.

فصل

اعلم -أيها الأخ وفقنا الله وإياك لطاعته-: أول ما يلزم الطالب لهذه الطريقة الحميدة أولا: أن يقصد شيخا يكون جامعا للعلم، والدين، والحياء، والعفاف، والكرم، والأدب، والفهم، والورع، والزهد، وحسن الخلق، معظما لربه، نفاعا لخلقه، خيرا في نفسه، مشفقا على عباده، داخلا في سلك أهل الطريقة، من لبس الخرقة، وتلقين الذكر.[10]

قال الإمام أحمد[11] في رواية مُهَنَّا[12]: "ومن الحق الواجب على المسلمين أن يقدموا خيارهم، وأهل الدين والفضل منهم، وأهل العلم بالله الذين يخافون الله ويراقبونه".[13] وجاء

---

[10] كما أخبر الله تعالى في قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع الخضر عليه السلام حيث قال: ﴿هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا﴾ [الكهف: 66]. قال القشيري رحمه الله تعالى: "لما أراد صحبة الخضر حفظ شرط الأدب، فاستأذنه في الصحبة، ثم شرط عليه الخضر أن لا يعارضه في شيء، فلما خالف موسى تجاوز عنه في المرة الأولى والثانية، فلما وصل إلى الثالثة سأم الخضر فقال: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ [الكهف: 78]. كذا في هامش الأصل. انظر: لطائف الإشارت (411/2).

[11] هو: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (164-241 هـ): الإمام الفقيه والمحدث، صاحب المذهب. أشهر كتبه: (المسند).

[12] هو: مهنأ بن يحيى، أبو عبد الله الشامي الفقيه، صاحب الإمام أحمد. لزمه ثلاثا وأربعين سنة. دمشقي نزل بغداد، حدث عن عبد الرزاق، وبشر الحافي وجماعة. وحدث عنه: عبد الله بن أحمد بن حنبل، والحسين المحاملي، وجماعة. انظر تاريخ الإسلام (217/6).

[13] ذكره الإمام أحمد في الرسالة المعروفة بالرسالة السنية، في الصلاة وما يلزم فيها. انظر حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع (306/2).

في الحديث: «إذا أم القوم رجل وخلفه من هو أفضل منه لم يزالوا في سفال».[14] وجاء في الحديث: «اجعلوا أمر دينكم فقهاءكم، وأئمتكم قراءكم». قال الشيخ تقي الدين بن تَيْمِيَّةَ[15] قدس الله روحه: "معنى الفقهاء والقراء أهل الدين والفضل والعلم بالله والخوف من الله"[16]. وصدق الشيخ رحمه الله؛ لأن من تقدم على غيره يلزمه الاعتناء بنفسه من معرفة الله، ومعرفة أحكامه وشرائعه، وتطهير أخلاقه ونفسه من الآثام، وغيرها التي توجب إسقاطه من عين الله؛ ليكون إماما لمن خلفه وتابعه.

وقد يعرف بهذه الطريقة –أعني: المشيخة– من لا يعرفها، ولا يجوز الاقتداء به، ولا يصلح أن يكون شيخا. ولهذا المعنى أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة»[17] الحديث. فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتقديم القارئ والعالم في نوع من أنواع العبادات فكيف يقدم جاهل في أنواع العبادات: من صلاة وصيام وزكاة وحج وطهارة وغير ذلك، ومن طهارة القلوب: من الشك والنفاق والكبر والعجب والرياء والحسد وغير ذلك، وعمارتها بالتقوى والخوف والرجاء واليقين والتوكل والصبر والرضا والمحبة والشوق وغير ذلك مما هو سبب لحياتها السرمدية؟.

فمن قدمه كان إثمه عليه، وفساد عبادته من غير علم على من قدمه. أولم يأمره بالعلم أولا من معرفة الله تعالى، وما أنزل من البينات والهدى، ومعرفة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تطهير نفسه من الأخلاق الدنية التي تعوقه عن التقدم إلى الحضرة الإلهية؟. فليس

---

[14] رواه الطبراني في الأوسط (4582/28/5) من حديث ابن عمر.

[15] هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية (661-728 هـ): الإمام، شيخ الإسلام، تصانيفه تبلغ ثلاث مئة مجلد أشهرها (مجموع الفتاوى). انظر الأعلام (144/1).

[16] انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (51).

[17] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (1477) من حديث أبي مسعود الأنصاري.

للشيخ أن يقدم أحدا بطريق المشيخة إلا أعلمهم بما تقدم. فالتقديم بالمشيخة على المريدين يكون بالفضل من العلم من الله والخوف منه.

فتقديم من اتصف بما تقدم يكون واجبا عليهم. وإن ترك المريدون تقديم من استحق التقديم وقدموا الجاهل الغبي لم يزالوا في سفال، وانتقاص في طريقهم، وبعد من الله؛ لأن المشايخ من حيث الاسم ستة: شيخ أقعده شيخه لما [استلظت][18] عنده حالته، وكملت تربيته، وتمكن مقامه، وحل فطامه وراءه، أهلا للاقتداء وإرشاد الخلق. وشيخ دخل تحت أحكام شيخه، واقتدى به، وتأدب بأدبه، وكمل الاقتداء به، ولم يبق له إلا إذن من الشيخ بذلك، فعاجل الشيخ موت أو غيره قبل أن يأذن له، فأمر في منامه أن يجلس للخلق ليرشدهم، فهذه عناية أورثها الاقتداء بالشيخ. وشيخ أقعده شيخه لإلباس الخرقة، وترتيب الناس خاصة؛ لعدم أهلية للاقتداء به، فهو في التحقيق مُسْنِد لا مفيد، وإلباسه الخرقة بمعنى الرواية، ولذلك يقول: "ألبستك هذه الخرقة كما ألبسنيها شيخي فلان"، وهذا هو الغالب من أحوال الناس اليوم. وشيخ أقعده وجوه توجه الناس إليه، والرؤساء والأعيان، والاعتناء بإقبالهم عليه، وترداده إليه لأمر ما منه ظهر، ووجه منه اشتهر، ونفذت[19] كلمته، وقبلت شفاعته، واحتاج الناس في دنياهم إليه، وامتثلوا أمره، وقالوا: قال الشيخ، وقيل للشيخ، فإن تغيرت عليه الرؤساء حالت عنه الأشياء، وهذا موجود أيضا في هذا الزمان. وشيخ أقعده عامة الناس لما حصل لهم من حسن سمته، ووصل لهم من جميل زجرهم حسن الظن به، وأقبلوا بكليتهم عليه، ولازموا خدمته، وأظهروا حرمته، ونالوا بصحبته خيرا، وحصلوا بمعرفته أجرا، وجعلوه لهم أسوة، واتخذوه قدوة، وهو لا بأس فيه، غير أنه متعد على مذهب أهل الطريقة؛ لأنه ليس بوارث؛ لأن الميراث لا يكون إلا بسبب أو نسب. وشيخ أقعد نفسه، وأسمع الناس حسه، وذكر لهم علمه، وشكر عندهم فهمه، وأظهر صيامه، وأشهر قيامه، وتحدث مع العامة

[18] كذا في الأصل.

[19] في الأصل: (ونفدت).

بما ليس له محصول، وأشار لهم أن كلامه لا تدركه العقول، فإن أقبلوا عليه حصلت له مسرة، وإن أعرضوا عنه نالهم من كلامه مضرة، وازدرى الناس، وحقرهم، ونسبهم إلى الجهل، وصغرهم، وحسد من فوقه، ومنع الناس رفقته، وغايته أن عجل لنفسه التعب، وساق إليها النصب، وجرها إلى العطب، وكفى بذلك مقتا والعياذ بالله.

فأما الشيخ الذي يتصدى للمشيخة، وينصب للقدوة، فلا بد له من وظائف[20] ولوازم، وإن لم يجمعها فإطلاق اسم المشيخة مجاز لا حقيقة، ولعله مغرور بهوى نفسه. والغرور: عبارة عن بعض أنواع الجهل، وهو كون النفس إلى ما يوافق الهوى، تميل إليه بالطبع، من حب الرياسة، من التصدر والإشارة إليه بالإكرام والتعظيم، وقضاء الحوائج، وتنفيذ الكلمة، فهذه نزغة من الشيطان، صادفت هوى النفس بسبب ما سمعوه وشاهدوه من تعظيم مشايخ القدوة، وإكرامهم وقضاء حوائجهم، فظنوا أن المشيخة بهذه الصورة الظاهرة، وعموا عما اتصفوا به –أعني: مشايخ القدوة– من المعرفة بالله، والقيام بوظائف[21] العبادات، وتطهير نفوسهم بالرياضات، وترك ما يشغلهم عنه مع غاية الذل والحب.

فالمتشبه نقل اسم المشيخة نقلا مجازيا، واغتر بالزي الظاهر من الدلوق[22]، والسجادات، والأعلام، والرسوم، والدعاوى الباطلة التي لا يقبلها نقل صريح ولا عقل صحيح، وترك رياضة نفسه بالمجاهدة بالجوع، والخلوة، والعزلة مع ملازمة الذكر، وتطهير الظاهر والباطن من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أول منازل الطريقة. فكيف يدعي مشيخة القدوة وهي النهاية، ولم يدر ما البداية مطلقا؟ ولو أحكم شروطها ما جاز له أن يعد نفسه شيخا، فكيف ولم يَحُمْ قط حولها؟ ومع ذلك يكالب على الرغيف والحبة والفلس، ويحسد على النقير والقطمير، ويمزق عرض من خالفه في شيء من هوى نفسه، ومثله مثل

---

[20] في الأصل: (وضايف).

[21] في الأصل: (بوضايف).

[22] كذا في الأصل. وفي مقاييس اللغة (297/2): النَّاقَةُ الدَّلُوقُ: هِيَ الَّتِي تَكَسَّرَ أَسْنَانُهَا فَالْمَاءُ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهَا. اهـ

امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال ثبتت أسماؤهم في الديوان، ويعطى كل واحد منهم كل شهر جائزة سنية، فتاقت نفسها إلى ذلك، ولبست درعا، ووضعت على رأسها مغفرا، وتعلمت من زجر الأبطال أبياتا، وكيف يتبخترون في الميدان، وكيف تحريكهم الأيدي، وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنظر والحركات والسكنات، وتوجهت لإثبات اسمها في الشجعان، فلما وصلت أنفدت[23] إلى ديوان العرض، فأمر أن يجرد عن المغفر والدرع، وينظر ما تحت، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان؛ ليعرف قدر قوتها في الشجاعة، فلما جردت فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة، لا تطيق حمل الدرع والمغفر، فقيل لها: قد استهزأت بالملك، واستجمعت أهل حضرته، ولبست عليهم بغرورها، فأخذوها وألقوها قدام الفيل ليقتلها، فألقيت إلى الفيل. فانظر يا أخي إلى هذا المثل، وما فيه من المعاني اللطيفة.

قال ابن الجَوْزِيّ[24]: "فهذا حال من يدعي المشيخة والمعرفة، إذا كشف الغطاء وانجلا الغبار". وقال سفيان الثَّوْرِيّ[25] عند قوله تعالى: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ [الزمر: 60] قال: "هم الذين ادعوا محبة الله ولم يصدقوا فيها".[26] واغوثاه بالله! كيف الخلاص؟.

فمن ادعى مشيخة القدوة يلزمه كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بآفاتها وعقباتها، مع صرف همته إلى قلبه، وقطع الشواغل عنه، مع قطع طمعه عن الخلق، فلا يلتفت إليهم، ويكون همه واحدا، وهو رضا سيده ومعبوده، والتلذذ بذكره ومناجاته، فحينئذ يصلح أن

---

[23] كذا في الأصل.

[24] هو: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج (508-597 هـ): علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ووفاته ببغداد. له نحو ثلاث مئة مصنف منها (تلبيس إبليس). انظر الأعلام (316/3).

[25] كذا في الأصل، لعله تحريف، ولعل الصحيح القشيري، وهو: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ) كما ذكره في تفسيره المسمى بلطائف الإشارات (189/3) وانظر البحر المديد (97/5). وأما سفيان الثوري فهو: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر، أبو عبد الله (97-161 هـ): أمير المؤمنين في الحديث. له من الكتب (الجامع الكبير). انظر الأعلام (104/3).

[26] انظر: تفسير السلمي (202/2).

يكون شيخا مرشدا مشفقا على دين المريدين، ناصحا لهم. فرحم الله قوما عنوا بدينهم، فقدموا خيارهم، واتبعوا في ذلك سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وطلبوا بذلك القربة إلى ربهم.

وأن يكون عالما بأصول الشريعة والحقيقة وفروعها، مما لا يستغني عنه المقتدي به عند كل وقت؛ لأنه بين أمرين إذا سأله المريد عن شيء من ذلك: إما أن يقول: "لا أدري" أو يجيبه، فإن قال: "لا أدري" ضيعه وضيع زمانه، وإن أجابه بغير علم عرض نفسه للمقت؛ لما روي عن ابن عباس[27] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[28]. متفق عليه.

وفي «جامع الترمذي»: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء، -وذكر منها-: وكان زعيم القوم أرذلهم[29]»[30].

وعن جابر قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلا منا حجرا، فشجه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر -أو يعصب- على جرحه ثم يمسح عليه، ويغسل سائر جسده» رواه أبو داود[31] والدَّارَقُطْنِيّ[32].

---

[27] كذا في الأصل، وهو تحريف، والصحيح: (عبد الله بن عمرو بن العاص) كما ثبت في الصحيحين وغيرهما.

[28] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (100) ومسلم في صحيحه (6893) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. فتأمل.

[29] في الأصل: (أردلهم).

[30] رواه الترمذي في سننه (2210) من حديث علي بن أبي طالب.

[31] رواه أبو داود في سننه (336).

[32] رواه الدارقطني في سننه (3/189/1).

وروى الدارقطني أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجعلوا أئمتكم خياركم؛ فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم»[33].

فجعل الإمام والشيخ هو الوافد الذي يفد إلى الله في مصالح الطالبين، كما تبعث القبيلة وافدها إلى نبي أو ملك. فصحة إرادة المريد موقوفة على صحة طريق شيخه، وهو مسؤول عنه؛ لأنه راع عليه، وكل راع مسؤول عن رعيته. فإذا صحت طريقة الشيخ صحت إرادة المريد، وبني على أصل، وإذا فسدت طريقة الشيخ فسدة إرادة المريد، وفسخ العهد بينهما؛ كالإمام إذا كان منحرفا عن القبلة، أو مكشوف العورة، فهذا مما لا يتصور جهل المأموم به، فتجب إعادة صلاته، وكذا المريد إذا علم بانحراف شيخه عن الكتاب والسنة فإرادته باطلة قطعا، وإذا خفيت عنه أحوال شيخه مثل أن يظهر أعمالا موافقة للكتاب والسنة، وأضمر اعتقادا فاسدا، وأصر على عمل خفي، فهذا لا يكلف علم الغيب، وإرادته صحيحة باعتبار حسن عقيدته فيه.

وأن يكون الشيخ ثقة في قوله، مأمونا في دينه، ذا جزم على أداء العبادات الواجبات والمندوبات، وإيقاعها أوائل الأوقات.

وأن يكون له تحرير فيما يتعلق بالورع، وما لا بد له منه من الغداء الذي به قوام نفسه؛ ليستعين بذلك على صفاء باطنه من الكدورات التي يصدأ بها القلب. والاقتصاد في المأكل والملبس، والاقتصار على الأوسط من ذلك، فإنه أكثر خِدْنًا[34] للمريد، وأسرع ميلا لاتباعه والاقتداء.

وأن يكون عارفا بالنفس وخواطرها المحمودة والمذمومة، عارفا بعللها وأمراضها، عارفا بدوائها.

---

[33] رواه الدارقطني في سننه (10/87/2) من حديث ابن عمر.

[34] (الْخِدْنُ): الصَّدِيقُ في السر. اهـ انظر مختار الصحاح (89) المصباح المنير (165/1).

وأن يكون ذا خبر على أخلاق المريدين، واحتمال جفاهم، حتى يتأسوا به، ويرتاضوا برياضته، ويميلوا لسياسته، ويأنسوا بفعله، وعلى هذا كان الاقتداء، نفعنا الله بهم.

وأن يكون ذا وقار وصمت وسمت؛ فإن ذلك يزيد عند أتباعه في خدمته، وتحصل لهم الفائدة في كلامه ورؤيته، ويعلمهم ما لا يسعهم جهله من العبادات، فإن لم يفعل أثم، فإن كان جاهلا بها حرم عليه التصدي للمشيخة. وعن ابن شَاهِيْنَ[35]، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا فسدت صلاة الإمام فسدت صلاة من خلفه».[36]

وكذا الشيخ إذا فسدت طريقته فسدت من خلفه وتابعه، حتى أن الإمام إذا ترك ركنا من صلاته فسدت صلاته، فكيف من ترك أركان طريقه؟. فإذا ترك ركنا ناسيا وعلمه المأموم بطلت، وكذا المريد إذا علم يقصر شيخه من طريق السالكين، وغلب عليه حب الجاه والرياسة وغير ذلك لزمه الرجوع عنه، فإن عاد عاد إليه. ولو علم المأموم أن إمامه صلى محدثا بطلت صلاته، فكيف يصح مشيخة من طول عمره محدثا؟ واغوثاه بالله! كيف الخلاص؟

قال بعض المشايخ رحمه الله: من رجع إلى الخلق قبل الوصول فقد رجع من الطريق، ويورثه ما تقدم من رياضته حب الرياسة، وطلب الاستعلاء، ومن رجع إلى الخلق بعد الوصول والتمكين صار إماما ينتفع به المريدون، وهو من زين ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالمراقبة، بعد طهارة قلبه من الخطرات الردية. فهذا هو شيخ القدوة على الحقيقة، وآخر لا متابعة ولا مراقبة، والدعوى الباطلة زائدة، واغوثاه بالله! كيف الخلاص؟

---

[35] كذا في الأصل، لعل الصحيح (أبي هريرة) فإن الحديث من روايته. ولم أر أحدا من مخرجيه عزاه إلى ابن شاهين. والله أعلم.

[36] رواه الخطيب البغدادي في المتفق والمفترق (383/667/1) من حديث أبي هريرة. وذكر الذهبي في تنقيح التحقيق (265/1) أن الحديث لا يعرف بحال.

فصل

وعلى الشيخ ملازمة السنة والجماعة، فإن كان مبتدعا من سوء الاعتقاد أو عمل ليس على سنة فهذا أسوأ حالا من الجاهل الحسن الاعتقاد؛ لأن البدع أعظم المعاصي. قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: "فساق أهل السنة أولياء الله، وعباد أهل البدع أعداء الله، وما زاد مبتدع اجتهادا إلا ازداد من الله بعدا، وقد أمرنا بمجانبته وهجره، فكيف نصلي خلفه وهو متدين ببدعته؟ فلا يقوم على صلاته؛ لأن الاعتقاد أصل العمل، فإذا كان أصله فاسدا كان وافد سوء، فلم يحصل به مقصود الوفادة". انتهى كلامه. فإذا صح الاعتقاد وانجلى القلب من رين الشبهات، لاحت فيه الدنيا بقبحها، وحساستها زهد فيها، ولاحت الآخرة بنفائسها، وما أعد الله لأهلها رغب فيها، وتحثه الرغبة على العمل لأجلها.

فإذا كان الشيخ بهذه الحالة كان موهبة من الله لمن يشاء من عباده، ويكون كعبد أرسل بعض عبيده ليدعوا الخلق إلى خدمة سيده ومعبوده، فهو يدعو الخلق إلى طاعة من أرسله ليدله من أرسله إلى خدمة سيده ومعبوده، فلا وصول إلى هذا السيد المعبود إلا بواسطة هذا العبد الكريم عليه؛ لأنه عالم بشروط أدب العبودية لهذا الملك المعبود على حسب معرفته، وأخذ أدب العبودية عنه، وكلما قويت معرفته به كان أنفع لمن يدعو على حسب جهله به، كان أضر على من يدعو، افهم هذا المثل يا أخي.

واعلم أن الشيخ رسول رسول الله إليك، يعلمك سنته وآدابه وأخلاقه، وما تفتقر إليه من الأدب الذي يليق بالحضرة الإلهية، من معرفة أحكام العبادات، من الطهارة من الأحداث والنجاسات والأوساخ الظاهرة والباطنة، وكيف القيام بين يدي هذا الملك المعبود؟ فحينئذ يحصل لك الإقبال منه، وإنفاق الجوائز السنية عليك، ويجعلك من أوليائه وخاصته.

فالشيخ يشهد نفسه أنه واسطة بين المريد وبين رسول الله، فيخرج نفسه، ولا يشهد لها شيئا، لا قالا ولا مقالا؛ لأن العبد لا يملك لنفسه شيئا مع سيده، لا ظاهرا ولا باطنا، خلافا لمن أرسله سيده ليدعو الخلق إلى خدمة سيده، فدعاهم إلى نفسه، فاستخدمهم، وادعى السيادة

عليهم، وجال بتكبره وعجبه، وأمرهم أن يكونوا في بابه، وفي ركابه، فهذا قد استحق العذاب من الملك الذي اشتغل عبيده عن خدمته، وخالف رسوله، فاستحق الطرد والبعد؛ لأنه سبحانه لا يحب أن يعبد غيره، ولا يتوجه إلا إليه.

فصل

قال صاحب «المعارف»[37]: "والسر في وصول السالك إلى رتبة المشيخة؛ لأن السالك مأمور بسياسة نفسه، [مبتلى][38] بصفائها، لا يزال يسلك بصدق المعاملة، حتى تطمئن نفسه، وطمأنينتها تنتزع عنها البرودة واليبوسة التي استصحبتها من أصل خلقتها، وبها تستعصي على الطاعة، والانقياد للعبودية، فإذا زالت اليبوسة عنها، لانت حرارة الروح الواصلة إليها. وهذا اللين هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [الزمر: 23] تجيب إلى العبادة، وتلين إلى الطاعة عند ذلك، فإذا اطمأنت نفس السالك وفرغ انتهى بسلوكه، وتمكن من سياسة، وانقادات نفسه، وفاءت إلى أمر الله، فحينئذ توسوس نفوس المريدين والطالبين كما كان يوسوس نفسه من قبل، وبما هنأه الله تعالى من حسن التأليف من الصاحب والمصحوب، وتصير هذه الولادة ولادة معنوية، كما ورد عن عيسى عليه السلام: «لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين»[39] فالولادة الأولى حسية، وهذه الولادة معنوية، وبها يستحق ميراث الأنبياء، ومن لم يصله ميراث الأنبياء ما ولد، فإن كان على كمال من الفطنة، والذكاء نتيجة العقل، والعقل إذا كان يابسا من نوع الشرع لا يدخل الملكوت، ولا يزال مترددا في الملك". انتهى كلامه.[40]

---

[37] أي: عوارف المعارف، وصاحبه عمر بن محمد بن عبد الله ابن عمويه، أبو حفص شهاب الدين القرشي التيمي البكري السُّهْرَوَرْدِيّ (539- 632 هـ). والله أعلم.

[38] في الأصل: (مبتلا).

[39] ذكره النيسابوري في تفسيره (267/2). انظر: إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (559).

[40] انظر: عوارف المعارف (54-5).

وقال أبو يزيد: "الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقدم، ويسرك بالاحترام والتعظيم، الشيخ من هَذَّبَك[41]، وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه[42]، الشيخ من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه". انتهى كلامه.[43]

وعلى الشيخ تعظيم ربه واستحقار نفسه. قال عبدُ الله بن بُسْرٍ[44]: كان يقال: "إذا اجتمع عشرون رجلا أو أكثر وإن لم يكن فيهم من يهاب الله فقد خطر[45] الأمر"[46]. وعلى قدر تعظيم الشيخ لربه يكون تعظيم المريدين له. فالشيخ لما اهتدى أُهِّل للاقتداء، وجعل إماما للمتقين، ويلاحظ نفسه وعمله وما فيهما من النقص؛ فإنه يجعل القلب خاشعا لا محالة، وينشف عنه الكبر والعجب والرياء. ويشهد مع ذلك ضعف صدقه، وقلة يقينه، وتشتيت نيته، وعدم إخلاصه في العمل الذي يتقرب إلى ربه عز وجل. ولا يخرج عن شهود عيوب نفسه ومفسدات أعماله. ثم يشهد فضل كل ذي فضل عليه وينسى فضل نفسه.

وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يقول: "العارف لا يرى له على أحد حقا، ولا يشهد له على غيره فضلا، فلذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب". انتهى كلامه[47]. فلا شيء أنفع للشيخ المسلك من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لا يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف. وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية كثيرا ما يقول: "ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء". وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي ❋ وهكذا كان أبي وجدي

---

[41] في الأصل: (هدبك).

[42] كذا في الأصل، وفي المنفرجتان (109): (بإطراقه).

[43] نقل مثل هذا الكلام شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في المنفرجتان (109) من أبي مدين.

[44] في الأصل: (بشر)، وهو تحريف، صوابه ما أثبته هنا. وهو عبد الله بن بسر المازني أبو صفوان، توفي سنة 88 هـ وهو آخر الصحابة موتا في الشام. انظر: الطبقات الكبرى (290/7) سير أعلام النبلاء (465/7).

[45] كذا في الأصل، وفي سير أعلام النبلاء (529/8): (حضر). وفي مسند الشاميين (1008/110/2): (رق).

[46] رواه الطبراني في مسند الشاميين (1008/110/2) وأحمد في مسنده (17679).

[47] انظر: المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمة (143/1).

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: "والله إني إلى الآن أجدد [إسلامي][48] كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاما جيدا". انتهى كلامه[49].

فإذا السادة بهذه المثابة فكيف قرناء الوسادة؟ واغوثاه بالله كيف الخلاص؟.

رأى محمدُ بن وَاسِعٍ[50] ابنا له يمشي مشية منكرة، فقال: تدري بكم اشتريت أمك؟ بثلاثمائة درهم، [وأبوك][51] لا أكثر الله من المسلمين مثله أبا وأنت تمشي هذه المشية[52].

فصل

وعليه لزوم التواضع مع كل أحد يليق به التواضع. قال عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْر[53]: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: "لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نَخْوَةٌ فأحببت أن أكسرها".[54] وولي أبو هريرة إمارة مرة، وكان يحمل حزمة الحطب[55] على ظهره وهو يقول: "طَرِّقُوْا للأمير"[56]. ويركب زيد بن ثابت، فدنا ابن عباس رضي الله عنهما ليأخذ بركابه، فقال: مه يا ابن عم رسول الله؟ فقال:

---

[48] لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام سياق النقل، كما في المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية (143/1).

[49] انظر: المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمة (143/1).

[50] هو: محمد بن واسع بن جابر الأزدي، أبو بكر (ت: 123 هـ): فقيه ورع، من الزهاد. من أهل البصرة. عرض عليه قضاؤها، فأبى. وهو من ثقات أهل الحديث. انظر الأعلام (133/7).

[51] لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام سياق النقل كما في الرسالة القشيرية.

[52] انظر: الرسالة القشيرية (281/1) صفة الصفوة (160/2).

[53] هو: عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله (22- 93 هـ): أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. انظر الأعلام (226/4).

[54] ذكره القشيري في رسالته (279/1).

[55] في الأصل: (الحزمة الحطب)،لعل صوابه ما أثبته هنا، أو (حزمة حطب) كما في الرسالة القشيرية (280/1). والله أعلم.

[56] رواه القشيري في رسالته (180/1).

"هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا". فقال له زيد: أرني يدك، فقبلها وقال: "هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم".[57]

وقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة حللا، فبعث إلى معاذ حلة يَمانِيّة[58]، فباعها واشترى بقيمتها ستة أعبد وعتقهم، فبلغ ذلك عمر فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها، فعاتبه معاذ، فقال: لأنك بعت الأولى، فقال: وما عليك، ادفع إلي نصيبي، وقد حلفت لأضربن بها رأسك. فقال عمر رضي الله عنه: رأسي بين يديك، وقد يرفق الشاب[59] بالشيخ.[60]

ويذكر أن أبا ذر عير بلالا بسواده، ثم ندم، فألقى نفسه وحلف "لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه"، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال[61]. وكان ابن خُثَيْمٍ[62] يَكْنُسُ الحَشَّ[63] بنفسه ويقول: "ينبغي للرجل أن يأخذ له نصيبا من المهنة".[64] أي: من الخدمة، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو خير الخلق- كان يخدم أهله بنفسه. وقال حمدون القَصَّارُ[65]: "التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة، لا في الدين ولا في الدنيا"[66]. وتكون مراقبة الله تعالى في باطنه وإعلام الشريعة على ظاهره. قال الجُرَيْرِيّ[67]: "أمرنا هذا مبني على

---

[57] رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (326/19).

[58] في الأصل: (مثمنة)، والتصحيح من الرسالة القشيرية.

[59] كذا في الأصل، وفي الرسالة القشيرية: (الشيخ).

[60] ذكره القشيري في رسالته (282/1).

[61] ذكره القشيري في رسالته (282/1).

[62] هو: الربيع بن خثيم الثوري أبو يزيد، توفي بالكوفة في ولاية عبيد الله بن زياد عليها. انظر صفة الصفوة (39/2).

[63] (الْحَشُّ) بفتح الحاء وضمها: البستان. انظر مختار الصحاح (73/1).

[64] رواه وكيع في الزهد (491) عن منذر عن الربيع بن خثيم.

[65] هو: حمدون بن أحمد بن عمارة القصار النيسابوريّ، أبو صالح (ت: 271 هـ): صوفي، كان شيخ أهل الملامة بنيسابور، ومنه انتشر مذهب الملامة (وهو مذهب خوف القدرية ورجاء المرجئة)، وكان عالما فقيها يذهب مذهب الثوري. انظر الأعلام (274/2).

[66] رواه القشيري في رسالته (281/1).

[67] هو: أَبُو مُحَمَّد أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن الْحُسَيْن الجُرَيْرِيّ، من كبار أَصْحَاب الإمام الجنيد. توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة. انظر الرسالة القشيرية (102/1).

فضيلتين: أن تلزم نفسك المراقبة لله، ويكون العلم على ظاهرك قائما".[68] وقيل: "أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذا الطريق المحاسبة والمراقبة لله وسياسة عمله بالعلم"[69]. قال أبو حَفْصٍ[70] لأبي عُثْمَانَ النيسابوري[71]: إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك، والله تعالى يراقب باطنك".[72]

قال ابن القَيِّمِ[73] رحمه الله: "وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره حفظه في حركاته في سره وعلانيته. والمراقبة: هي التعبد باسمه الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عَقَلَ هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة. والله أعلم". انتهى كلامه.[74]

فحينئذ تثمر المراقبة تعظيم حرمات الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾ [الحج: 30]. قال جماعة من المفسرين: "حرمات الله ههنا: معاصيه وما نهى عنه، وتعظيمها ترك ملابستها". قال اللَّيْثُ[75]: "حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها". وقال قوم: "الحرمات: هي الأمر والنهي". قال الزَّجَّاجُ[76]: "الحرمة: ما وجب القيام به وحرم التفريط".[77]

---

[68] رواه القشيري في رسالته (331/1).

[69] رواه القشيري في رسالته (331/1) من كلام أبي عثمان المغربي.

[70] هو: أَبُو حفص عُمَر بْن مسلمة الحداد، من قرية يقال لَهَا كورداباذ، عَلَى بَاب مدينة نيسابور عَلَى طريق بخارى. كَانَ أحد الأئمة والسادة. توفي سنة نيف وستين ومائتين. انظر الرسالة القشيرية (69/1).

[71] هو: أَبُو عُثْمَان سَعِيد بْن إِسْمَاعِيل الجبري، توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين. انظر الرسالة القشيرية (81/1).

[72] رواه القشيري في رسالته (331/1).

[73] هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (691- 751 هـ) من تلامذة الشيخ ابن تيمية.

[74] انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (66/2).

[75] هو: الليث بن سعد عبد الرحمن الفهميّ بالولاء، أبو الحارث (94- 175 هـ): إمام أهل مصر في عصره، حديثا وفقها. قال الإمام الشافعيّ: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به. انظر الأعلام (248/5).

[76] هو: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (241- 311 هـ) من كتبه (إعراب القرآن).

[77] انظر: تفسير البغوي (338/3).

فإذا حصل للشيخ المسلك بعد ما ذكرنا منزلة التواضع مع لزوم المراقبة مع تعظيم حرمات الله مع عمارة الأوقات بالطاعات لزمه منزلة أخرى وهي علمه بما يستحقه الرب جل جلاله، من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأنه أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقها، وأن لا يرضى بها لربه؛ لأن العارف لا يرضى بشيء من علمه لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين، ويستحيي من مقابلة الله من سوء ظنه بنفسه وعلمه وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه، وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضا بعلمه والرضا عن نفسه.

كان بعض السلف[78] يصلي في اليوم والليلة أربع مائة ركعة[79]، ثم يقبض على لحيته ويهزها ويقول لنفسه: "يا مأوى كل سوء، وهل رضيتُكِ لله طرفة عين؟".[80] قال بعضهم: "آفة العبد رضاه عن نفسه"[81]. ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن يتهم نفسه دوام الآفات فهو مغرور. فيثمر هذا العلم الخجل من الله، والكسرة التي في مقابلتها الجبر «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»[82] فيشهد التقصير. ولا بد للشيخ وغيره مع بذل المجهود في الخدمة، ولا يخلص هذا المشهد إلا بمعرفة مشهد الإلهية، وهو أن يشهد الإله المعبود في غاية الكمال الذي لا يقابله ذرة[83] من النقص من كل وجه من أسمائه وذاته وصفاته، فإذا شهد هذا المشهد شهد مشهد العبودية، وهو أن يشهد لنفسه النقص الذي لا يقابله ذرة من الكمال من كل وجه.

---

[78] منهم كَهْمَسُ بن الحسن القيسي.

[79] كذا في الأصل، وفي صفة الصفوة: (ألف ركعة).

[80] ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (186/2) من كلام كهمس.

[81] رواه البيهقي في الزهد (332).

[82] رواه أحمد في الزهد (391) عن عمران القصير عن موسى بن عمران.

[83] في الأصل: (درة).

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام[84] رحمه الله تعالى: اعتقاد أهل السنة مشهد ما دلت عليه أسماء الله تعالى الحسنى التسعة والتسعون التي سمى الله بها نفسه الكريمة في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مندرجة في أربع كلمات وهي الباقيات الصالحات، الكلمة الأولى: "سبحان الله"، ومعناها في لغة العرب: التنزيه، وهي متضمنة سلب كل عيب ونقص عن ذاته سبحانه وتعالى وصفاته، فما كان من أسمائه سلبا كالقدوس وهو الطاهر من كل عيب، والسلام الذي سلم من كل آفة، فهو مندرج تحت قولنا: "سبحان الله". الكلمة الثانية: "الحمد لله"، وهي متضمنة إثبات[85] ضروب الكمال لذاته وصفاته، فما كان من أسمائه متضمنا للإثبات كالعليم والقدير والسميع والبصير، فهو مندرج تحت قولنا: "الحمد لله"، فقد نفينا بقولنا: "سبحان الله" كل عيب عرفناه وكل نقص فهمناه، وأثبتنا بالحمد لله كل كمال جهلناه، وكل جلال أدركناه، وراء ما لقيناه وأثبتناه شأن عظيم قد غاب وجهلناه، فنحققه من جهة الإجمال بقولنا: "الله أكبر"، وهذه الكلمة الثالثة بمعنى أنه أجل مما لقيناه وأثبتناه، وذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[86]، فما كان من أسمائه متضمنا لمدح فوق ما أردناه وأدركناه كالعالي والمتعالي فهو مندرج تحت قولنا: "الله أكبر". فإذا في الوجود من هذا شأنه نفينا أن يكون في الوجود من يشاكله أو يناظره، فحققنا ذلك بقولنا: "لا إله إلا الله"؛ لأن الإلهية ترجع إلى استحقاق العبودية، وإنما يستحق العبودية من اتصف بجميع ما ذكرناه، فما كان من أسمائه متضمنا للجميع على الإجمال كالواحد والأحد وذي الجلال والإكرام فهو مندرج تحت قولنا: "لا إله إلا الله"، وإنما استحق الألوهية

[84] هو: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (577- 660 هـ).من كتبه قواعد الأحكام في مصالح الأنام.

[85] في الأصل: (إثباب).

[86] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (1024) من حديث عائشة.

بما وجب له من صفات الكمال ونعوت الجمال الذي يعجز عن عدها العادون، ويعجز عن وصفها الواصفون. انتهى كلامه.

والذي حجبنا عن هذا المشهد العظيم مشهد نفوسنا الدنية، وميلها إلى ما نهواه من حب الرياسة عند أبناء الدنيا، والرجاء لما في أيديهم. قال المُرْتَعِشُ[87]: "سافرت ثلاثين سنة على سبيل السياحة، ولقيت فيها سبعين شيخا أوصاني كل واحد منهم بخمس خصال، وقالوا بلسان واحد: إذا أردت أن تصل إلى الله فعليك بخمس خصال، أولها: إخراج حب الرياسة من القلب، الثانية: تطهير القلب من حب الرياسة، الثالثة: ترك مجالسة الأحداث، الرابعة: المحافظة على قلوب المشايخ، الخامسة: التجنب من صحبة أبناء الدنيا". والمقصود أن أحدنا يدعي شيخا، ونشهد لنا بها حقا على الناس، مع إصرارنا على ما لا يرضى الله به، متكالبين على الدنيا، قيدتنا العوائد والرسوم عن السلوك في الطريق، فأصبحنا عنها بمعزل، ومنزلتنا أبعد، ونشير إلى المقامات ونحن لم نعرفها، ونزعم بجهلنا أننا خواص ونحن في انتقاص، وبذل مجهودنا في ارتفاع منزلتنا عند الناس والتحبب إليهم بما يكره الله، واغوثاه بالله، كيف الخلاص؟

ويا ليتنا سكتنا عن الدعاوي الباطلة، قال بعض العارفين: "التصوف: ترك الدعاوي وكتمان المعاني".[88] ونحن دعاوي بلا معاني، قد غلب علينا عن الخلق من التذلل[89] بين يدي الخالق، وحب الدنيا عن لذة الافتقار إليه، ولم يبق لنا إلا حسن الظن به من رحمته، وتفضله وإحسانه؛ لأنه سبحانه المحسن على الدوام. فنسألك يا الله بعزك وذلنا، وقوتك وضعفنا، وغناك وفقرنا، هذه نواصينا الكاذبة الخاطئة بين يديك، وعبيدك غيرنا كثير، وليس لنا سيد

---

87 هو: أَبُو مُحَمَّد عَبْد اللَّهِ بْن مُحَمَّد المرتعش النيسابوري، صحب أبا حفص وأبا عُثْمَان ولقي الجنيد، توفي ببغداد سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. انظر الرسالة القشيرية (118/1).

88 انظر: بريقة محمودية (43/2).

89 في الأصل: (التدلل).

سواك، ولا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. فنسألك مسألة المسكين، ونبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وندعوك دعاء الخائف الضرير، ونسألك سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم أنفه، وفاضت عيناه، وذل قلبه. وأنشد بعضهم[90]:

يا من ألوذ به فيما أُؤَمِّلُه * ومن أعوذ به فيما أحاذره

لا يَجْبُرُ الناسُ عَظْمًا أنت كاسره * ولا يَهِيْضُوْنَ عظما أنت جابرُه[91]

فنسألك يا الله توبة نصوحا تنقلنا بها من ذل معصيتك إلى عز طاعتك، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

فصل

اعلم -وفقنا الله وإياك-: أن المشيخة مرتبة شريفة، ومنزلة رفيعة، ودرجة عالية، قال أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبي[92]: "المتصف بالمشيخة على الحقيقة يسمى قدوة ووارثا وأستاذا وشيخا ومعلما ومتبوعا ومؤدبا ومفيدا ومرشدا، وهذه الأسماء كلها وإن اختلفت ألفاظها فمعانيها متفقة، وليس لها غاية، بل الشيخ طالب للزيادة أبدا".

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وقل رب زدني علما﴾ [طه: 114] لأن الشيخ يدل على الله، وله أجر من تبعه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[93] رواه مسلم. فهذا الأمر زائد له على عمله، فليحرص كل الحرص على الإرشاد إلى طريق الحق. ولقوله صلى الله عليه وسلم: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور

---

[90] وهو المتنبي كما في تفسير ابن كثير.

[91] انظر: تفسير ابن كثير (114/1).

[92] هو: محمد بن سليمان بن محمد المعافري، أبو عبد الله الشاطبي، ويقال له ابن أبي الربيع (585- 672 هـ). من كتبه: (النبذ الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية).

[93] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (4933) من حديث أبي مسعود الأنصاري.

من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا»[94].

وعلى الشيخ المربي -أعانه الله تعالى- أن يجتنب الأقوال والأفعال والتصرفات التي ظاهرها خلاف الصواب، وإن كان محقا فيها؛ لأنه إذا فعل ذلك ترتب عليه مفاسد توهم كثيرا ممن يعلم ذلك أنه جائز على ظاهره بكل حال، وأن يبقى[95] ذلك شرعا وأمرا معمولا به أبدا. ومنها وقوع الناس فيه بالتنقيص، واعتقادهم نقصه، وإطلاق ألسنتهم بذلك. ومنها أن الناس يسيئون الظن به، فينفرون عنه، وينفرون غيرهم من أخذ العلم عنه، فهذه مفسدة ظاهرة ينبغي له اجتنابها[96]. ذكره النووي[97].

فصل

وإذا وقع للمريد الصادق شيخ متصف بما ذكرنا يكون معه كالطفل مع أمه، متوجها إليها في جلب المنافع إليه ودفع المضار، فيكون المريد متوجها إلى الشيخ في جلب المنافع، وهي الأسباب الموجبة لرضا رب العالمين تبارك وتعالى، ظاهرا وباطنا، ودفع الأسباب الموجبة لسخطه من أنواع المخالفت ظاهرا وباطنا، وتحكيمه له في نفسه على ما يراه من غير اعتراض منه، ولزومه الحرمة له والأدب معه؛ لما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا»[98] رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح. وفي رواية أبي داود: «حق كبيرنا»[99].

---

[94] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (6901) من حديث أبي هريرة.

[95] في الأصل: (يتقي)، والتصحيح من الأذكار النووية (322).

[96] انظر: الأذكار النووية (322).

[97] هو: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (631- 676 هـ).من كتبه (شرح صحيح مسلم).

[98] رواه جماعة منهم أبو داود في سننه (4945) والترمذي في سننه (1920).

[99] رواه أبو داود في سننه (4945)

ورحمة الصغير: حمله على التأديب والحرمة، وتوقير الكبير: صحبته والقيام بخدمته بحسن الأدب. وقال أبو عمرو الزجاجي[100]: "لو أن رجلا بلغ أعلى المراتب والمقامات حتى يكشف له عن الغيب، ولا يكون له أستاذ لا يجيئ منه شيء".[101]

وقال أبو يزيد[102]: "لو أن رجلا بلغ الموضع الذي هو غاية العارفين لم يستغن عن إسناد". وقال: "المريد لزوم قلبه حرمة شيخه". قال سَرِيّ السَّقَطِيّ[103]: "إذا وقر الإيمان في قلب عبد أورثه ذلك حرمة الأولياء". وقال ذو النون[104]: "إذا بعدت القلوب عن الله مقتت العاملين بحق الله".[105] وقال أبو العباس بن عطاء[106]: "العبد مأخوذ بحالين: بتعظيم حقوق، والقيام بحرمة أولياء الله، فمن سقط عن قلبه حرمات الأولياء صغر في عينه تعظيم، وحرم حسن الإقبال على الله".

وقال الجُنَيْدُ[107]: "من أحب أن يكرم الله ولا يكرم عباده فيه فهو من علامات النفاق". وقال أبو عبد الله بن الجَلَا[108]: "ليس شيء ألزم للعبد بعد معرفة الله تعالى والقيام بأوامره من

[100] هو: أَبُو عَمْرو مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم الزجاجي النَّيْسَابُورِيّ، صحب الجنيد وأبا عُثْمَان والنوري والخواص ورويما، توفي سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة. انظر الرسالة القشيرية (133/1).

[101] روى القشيري نحوه في رسالته (121) عن أبي عَلِيّ الثقفي (ت: 328 هـ) يَقُول: لو أَن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف النَّاس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أَوْ إمام أَوْ مؤدب ناصح، ومن لَمْ يأخذ أدبه من أستاذ يريه عيوب أعماله ورعونات نَفْسه، لا يَجُوز الاقتداء بِهِ فِي تصحيح المعاملات. اهـ

[102] لعله: أبو يزيد السبطامي وهو طيفور بن عيسى البِسْطَامِيّ، أبو يزيد، ويقال بايزيد (188- 261 هـ).

[103] هو: سري بن المغلس السقطي، أبو الحسن (ت: 253 هـ).

[104] هو: ثوبان بن إبراهيم الإخميميّ المصري، أبو الفَيَّاض، أو أبو الفيض (ت: 245 هـ).

[105] انظر: عيوب النفس (33).

[106] هو: أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الادمي. كان ينام من الليل والنهار ساعتين. وتوفي في ذي القعدة سنة تسع وثلاث مائة رحمه الله. انظر صفة الصفوة (533/1).

[107] هو: الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم (ت: 297 هـ).

[108] هو: أَحْمد بن يحيى بن عمر أَبُو عبد الله، صحب ذَا النُّون الْمصْرِيّ، وَأَبا تُرَاب النخشبي، بغدادي، وابوه كَانَ يتَكَلَّم على النَّاس، فيجلو الْقُلُوب، فَسُمي الجلا، ذكره ابْنه، توفّي أَبُو عبد الله يَوْم السبت لِاثْنَتَيْ عشرَة خلت من رَجَب سنة سِتّ وَثَلَاث مئة. انظر: توضيح المشتبه (566/2).

معرفة حقوق الطريق بمعرفة الله، فهم أولياء الله وأصفياءه". وقال إبراهيم الخَوَّاص[109]: "لا يجد العبد حلاوة خدمة الله إلا بعد خدمة أوليائه ومحبيه، فببركة خدمته لهم يذيقه حلاوة خدمة سيده".

وقال ذون النون: "إن الله أودع في كل وعاء من أوعية أوليائه سرا من أسراره، فمن لم يشاهد ذلك السر فهو لعمى قلبه، ومن شاهده ولم يعظمه فهو لقلة دينه". وقال أبو عبد الله النِّبَاجِيُّ[110] لبعض أصحابه: "إذا لم تحيى بالله ولم تصحب من حيي بالله فمتى تحيى؟".

فمن أدب صحبة الشيخ وإلزام صحبته: حفظ سره، وأن لا يحكي عنه إلا على حسب ما يقبله قلب المستمع؛ لئلا يقع له عليه إنكار من غير علم يخاف عليه من ذلك. قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ[111]: "اعلم أنه لا يسقط من قلب مريد حرمة شيخه إلا بتهاونه بحرمات الله؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى: «من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة»[112]. لأن من تهاون بحرمات الأولياء تهاون بحرمات الرسول، ومن تهاون بحرمات الرسول تهاون بحرمات الله وأوامره، فيكون من الهالكين ولا بد. وأصل ذلك رؤية النفس وتعظيمها وحب التصدر والقبول بين الناس، فيريد أن يبلغ بنفسه إلى حال هو عنها خال. ومن لم يجعل الطريق إلى حرمة الرسول حرمة السلف والأكابر لم يصل إلى حفظ حرمته، ومن لم يجعل طريق الوصول إلى الحق متابعة النبي صلى الله عليه وسلم وحرمته سقط عن درجة الوصول إلى الحق، وحرم بركة متابعة الرسول وعاش ذليلا محروما".

---

[109] هو: إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، أبو إسحاق الخواص (ت: 291 هـ).

[110] هو: سعيد بن يزيد أبو عبد الله النباجي. وهو من أصحاب بن أبي الحواري وأبي سعيد الخراز. قال ابن الجوزي: لا نعرف للنباجي مسنداً، وإنما كان مشغولاً بالزهد والتعبد، وقد حكى عن الثوري والفضيل وغيرهما. انظر صفة الصفوة (419/2) طبقات الصوفية (183).

[111] محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري، أبو عبد الرحمن (325- 412 هـ). من كتبه: (طبقات الصوفية).

[112] رواه الطبراني في الأوسط (609/192/1) من حديث أنس بن مالك.

وقال أيضا قدس الله روحه: "التهاون بحرمات المشايخ هو من التهاون بحرمات الأحوال والأصحاب، فمتى يصل العبد إلى المحل الأعلى وهو يضيع الأدنى؟ فمن قنع بقبول الأنداد له واستتباع العوام أطلق لسانه بالوقيعة في إخوانه ومشايخه، ونزع ماء الحياء من عينه، وفرح من وقته بغير مفروح به، كما قال الله تعالى لقارون: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ [القصص: 26]؛ لأن بقدر إقبال الله على العبد يوفقه للإقبال على أوليائه، ويرزقه حرمتهم وخدمتهم، ويعلمه أن لا يبلغ إلى حد المقبولين إلا بعد أن يكون قابلا، فإذا قبل ما يشير به عليه[113] يصير مقبولا عند الخلق، فيقبلون منه، ويسعدون بالقبول منه، كما سعد هو من شيخه، وألقى الله آثار هيبته، وأنوار محبته، فأحبه الأبرار، وهابوه الأشرار، وعظموا حرمته، وتبركوا بخدمته، واستمالوا بصحبته، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل: إن الله أحب فلانا فأحبوه»[114]، ثم يوضع له القبول في الأرض، وليس القبول ما يقبله العوام والمعاشرون، وإنما القبول هو ما يقبله الخواص من العباد. ومن رزق خدمة المشياخ وحفظ حرماتهم، ورثه ذلك ثلاثة أشياء: كراهية البقاء في الدنيا، وبغض الإكثار منها والغنى فيها، ويسقط اهتمام العداء من قلبه.

ومن آداب الصحبة وتمامها: أولا: لا يصاحب من يخالف شيخه في الأصول والفروع؛ فإن الفروع نتيجة الأصول، فيتولد من ذلك ظلمة القلب، وشتات السر، وسوء أدب الجوارح الظاهرة والباطنة. والفرق بين العشرة والصحبة أن[115] العشرة للوقت، والصحبة للمداومة، وكدورة العشرة من مجالسة الأضداد. قال أبو علي الرُّوذبَارِيّ[116]: "أضيق

113 في الأصل: (علي).

114 رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (3037) من حديث أبي هريرة.

115 في الأصل: (لأن)، لعل الصحيح ما أثبته هنا.

116 في الأصل: (الرذبادي)، وهو تحريف، صوابه ما أثبته هنا. وهو: محمد بن أحمد بن القاسم، أبو علي الروذباري (ت: 322 هـ): فاضل. من كبار الصوفية. أصله من بغداد، سكن مصر.

السجون معاشرة الأضداد". وكدورة الصحبة من مخالفة الاعتداد، كما قال يحيى بن معاذ[117] رحمة الله عليه: "من خالف عقدك عقده خالف قلبك قلبه".[118]

فصل

قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ: "ومن آداب مجالسة الشيخ قلة الكلام بين يديه، وقلة سؤاله، إلا في وقت الاضطرار والحاجة، فإنك إن سألت سؤال محتاج ظهر لك فوائد سؤالك في جوابه، وأثار عليك بركاته، وإذا سألت سؤال مستغن تريد أن يظهر عليك كان جوابه حجة عليك، غير مؤثر بركته. ومن آدابه أيضا: أن لا يسأل شيخه زيادة محل أو رتبة أو كلام فوق ما يكلمه به، ويعلم أنه أعرف به وبأحواله منه بنفسه، وما يؤدبه به ويشير عليه خيرا وأنفع له عاجلا وآجلا مما يفرط لنفسه". انتهى كلامه.

ومن آدابه في مجالسة شيخه: أنه إذا جلس بين يديه أو غيره من المشايخ يكون متوركا، يجعل باطن رجله اليسرى تحت فخذه اليمنى، فيجعل إليتيه على الأرض، ويجعل باطن يده اليمنى على باطن يده اليسرى، ويكون قبالة وجهه؛ لئلا يكلفه الالتفات يمينا وشمالا، مستمعا لقوله، غير مخالف بقلبه، ولا يشار في مجلسه، ولا يعارضه في كلامه، وينزله بمنزلة الطبيب الحاذق، وهو بمنزلة المريض العاجز، يجعل قلبه خزائنه لقوله، ينفق منه كلما أراد.

وأن لا يكون مشتت الهمة والخاطر بين يديه، ويكون همته وخاطره مقصورا على ما يرى من آدابه وأخلاقه وأوامره ونواهيه. فإذا تفرقت عليه خواطره وهممه في مجالسة شيخه سقط عن درجة التأدب والأخذ عنه. ولا يجالسه على مثل الصبر عليه، بل يجالسه على نية

---

[117] هو: يحيى بن معاذ بن جعفر الرازيّ، أبو زكريا (ت: 258 هـ): واعظ، زاهد من أهل الري. أقام ببلخ، وتوفي في نيسابور.

[118] انظر: آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (67).

الافتخار بمجالسته، والتبرك بخدمته، إلا بمقدار ما يقبله قلبه من يخبره به، فإن للمشايخ أسرارا[119] لا يشرف عليها إلا المريدون. وعليه بحفظ قلب شيخه، والحذر من مخالفته.

حكى القُشَيْرِيّ[120] رحمه الله تعالى: أن شَقِيْقًا البَلْخِيّ[121] وأبا تراب النَّخْشَبِيّ[122] قدما على أبي يزيد البِسْطَامِيّ، فقدمت السفرة، وشاب يخدم أبا يزيد فقال له: كل معنا يا فتى، فقال: أنا صائم، فقال أبو تراب: كل ولك أجر صوم شهر، فأبى، فقال شقيق: كل ولك أجر صوم سنة، فأبى، فقال أبو يزيد: دعوا من سقط من عين الله. فأخذ ذلك الشاب في السرقة بعد سنة، فقطعت يده[123]. وقال ابن المبارك[124]: "من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة".[125]

وعلى المريد أن يصحح نيته فيما بينه وبين الله مع شيخه، وأن لا يخالفه في كل ما يشير عليه؛ فإن خلاف المريد في ابتداء أمره عظيم الغرور. وأن يطلعه على جميع ما يخطر بقلبه خيرا كان أو شرا. ولو وقع له مخالفة فيما أشار عليه فينبغي أن يقر بين يديه في الوقت. والدليل على ذلك قصة كعب بن مالك لما تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، واعترافه بين يديه، والقصة مشهورة في «الصحيح»[126]. وأيضا قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله

---

[119] في الأصل: (أسرار).

[120] هو: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة النيسابوريّ القشيري (376- 465 هـ). من كتبه (الرسالة القشيرية).

[121] هو: شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي، أبو علي (ت: 194 هـ): زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان.

[122] هو: عسكر بن الحصين (أو ابن محمد بن الحسين) النخشبي، أبو تراب (ت: 245 هـ): شيخ عصره في الزهد والتصوف. من أهل " نخشب " من بلاد ما وراء النهر. أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل آخرون. انظر الأعلام (233/4).

[123] رواه القشيري في رسالته (502/2).

[124] هو: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظليّ بالولاء، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن (118- 181 هـ) من كتبه: (الرقائق).

[125] انظر: نزهة المجالس ومنتخب النفائس (82/1).

[126] انظر: صحيح البخاري (3363).

عنها: «إن كنت أَلْمَمْتِ بذنب فاستغفري الله، وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه»[127].

ولا بأس أن يكون قائما على قدميه، واضعا يده اليمنى على كوع اليسرى، حاسرا على رأسه. وحسر الرأس نقل عن الشيخ عز الدين الواسطي[128]، وهو أبلغ في استعطاف القلوب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للصديقِ رضي الله عنه: «بين كنت أغضبتَهم –يعني: صُهَيْبًا وسَلْمَانَ وبلالا– في نفر لقد أغضبتَ ربَّك»، فأتاهم فقال: "يا إخوتَاهْ، أنا أغضبتُكم؟ قالوا: لا يغفر الله يا أخي". رواه مسلم[129].

وفيه دليل استعطاف قلوب الفقراء، ويكون بقلبه ذاكرا وقوفه بين يدي الله، وهو يقرره بذنوبه، فيتولد من ذلك خوف من الله واستحياء منه، عازما بقلبه أن لا يعود إلى ما وقع منه، وكذلك الحاضرون الفقراء فيذكرون بذلك الوقوف بين يدي الله تعالى، وإذا كان هذا وقوف عبد مع عبد مثله فكيف مع الله سبحانه وتعالى؟ فحينئذ تزول الوحشة، فإذا زالت الوحشة حصل الصفاء، وهو المراد من الاجتماع. وهذا آداب[130] الفقراء بعضهم مع بعض.

فصل

قال السُّلَمِيّ: "ومن تحقق في خدمة المشايخ ولزم خدمتهم أورثه في الرغبة الزهد، وبالأصل التوبة، وبالحرص القناعة، وبالجزع الصبر، وبالسخط الرضا، وبالكبر التواضع، وبالتذلل[131] التعزز، وبالشك اليقين، وبالإنكار المعرفة، وبالإعراض الإقبال، وبالضعف

---

[127] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (4473) من حديث عائشة.

[128] هو: أحمد بن إبراهيم بن عمر، أبو العباس، عز الدين الواسطي الفاروثيّ (614- 694 هـ): مقرئ شافعيّ كان شيخ العراق في عصره. نسبته إلى فاروث (قرية على دجلة). له (إرشاد المسلمين لطريقة شيخ المتقين). انظر الأعلام (86/1).

[129] رواه مسلم في صحيحه (6496) من حديث عائذ بن عمرو.

[130] كذا في الأصل. لعله: (أدب).

[131] في الأصل: (وبالتدلل). لعل ما أثبته هنا هو الصحيح.

القوة، وبحب الدنيا الاستغناء عنها وعن أهلها، وبالحركة السكون، وبالفناء بصفاته وأحواله الفناء عنها والبقاء بالحق، وبالكسل النشاط، وبالغفلة الانتباه، وبالتدبير التفويض، وبالخلاف الموافقة، وبالبغضة المحبة، وبتشتيت الهمة جمعها له، على هذا الترتيب إلى ما لا نهاية له ولا غاية. وهذا كله لصحة اعتقاده بخدمة المشايخ وتعظيم حرماتهم، فإنه من لم ير على ظاهره آثار بركات التأدب بالأكابر الفقراء يدلك ذلك على خراب باطنه". انتهى كلامه.

فإذا خدم المريد الفقراء فخواطرهم رسلهم إليه، فلا ينبغي أن يخالف المريد ما حكم باطنه عليه من الجلوس في الخدمة، وبذل الوسع والطاقة، ومن شأنه الصبر على جفاء أحوال الفقراء، وأن يعتقد أنه يبذل روحه في خدمتهم، وإن وجد تقصيرا من نفسه اعتذر وأقر بالخيانة على نفسه تطييبا لقلوبهم وإن علم أنه بريء الساحة.

قال الأستاذ أبو بكر بن فُوْرَك[132]: "إن في المثل: إذا لم تصبر على المطرقة لِمَا كنت سندانا؟".[133] وقال أبو حفص: "حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن".[134] قال تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج: 32] وتعظيم الشعائر ظاهرا وتقوى القلوب باطنا أعلمك بذلك أن بركات ما يبدو على الظواهر بركات البواطن، وأن أنوار البواطن تبدو على الظواهر آثارها.

قال بعضهم: "من صفت سريرته أشرقت علانيته، ومن لم تؤدبه صحبة شيخ ناصح، ولم ترضه مشاهدته لا يفلح حقيقة، وإن ظهرت عليه آثار الفلاح ظاهرا، ويكون في محل الغرور والاستدراج، ألا ترى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «طوبى لمن رآني»[135].

---

[132] هو: محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (ت: 406 هـ): واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية. من كتبه (مشكل الحديث وغريبه). انظر الأعلام (83/6).

[133] رواه القشيري في رسالته (583/2).

[134] انظر: الرسالة القشيرية (447/2).

[135] رواه جماعة منهم أحمد في مسنده (22138) من حديث أبي أمامة.

قال السُّلَمِيّ: "معناه فإن من أثرت فيه بركة مشاهدتي وارتاض بمجالستي وتأدب بأدبي وتخلق بأخلاقي". فآداب المشايخ والأكابر نتيجة أدبه، وأخلاقهم تبعا لخلقه، فالمقتدي بأخلاقهم والمتأدب بآدابهم كالمتخلق بأخلاق الرسول والمتأدب بآدبه، ومتى يصل العبد إلى النور الأعلى وقد ضيع النور الأدنى؟ ومتى يصل إلى حقيقة حرمة الرسول وقد ضيع حرمة مشايخه؟.

ومن أحب أن يصح لصحبة الإخوان وحرمة المشايخ فليكرم الفقراء أجمع، ويترك تعظيمه لنفسه والانتقام لها. فمن تهاون بالفقراء وعظم نفسه تولد عليه كل بلية، نعوذ بالله من الخذلان. ومن وفقه الله للقيام بخدمة الإخوان وتعظيم حرمات المشايخ، وحفظ على نفسه آداب المقامين جميعا بلغه الله مبلغهم، ورزقه ما رزقهم، ومن تهاون بهما أورثه ذلك ذلا لا يأمنه أبدا.

ومن تأدب بآداب المشايخ، وحفظ حرماتهم صار إماما يقتدى به، وينتفع به المريدون، ومن كان راسم[136] نفسه هلك وأهلك. وقال أيضا: "ومن صحب المشايخ، وسمع كلامهم ليفوق به عند العوام، ويتصدر به في المجالس أهلكه ذلك، وأخرجه إلى هتك الحرمات والدخول في الزندقة". قال بعضهم: من سمع الموعظة لنفسه كتمها وانتفع بها، ومن سمّعها لغيره أشاعها وهلك بها. ومن لم يتأدب بآداب الإخوان لا يتأدب بأداب المشايخ، ومن لم يتأدب بآدابهم لا يصل إلى بركات صحبتهم، ومن لا يصل إلى بركاتهم قطعه عن آداب الفرائض ومتابعة السنن، ووجدان بركاتهم، ومن خلا من آداب الفرائض ومتابعة السنة حرم الوصول إلى معالم المعارف، وبقي في مفاوز الاغترار، ولا تظهر عليه بركات المشاهدات، ولا حياة المطالعات، ولا نمو الأحوال، ولا سمو الأفعال، وتطرق إلى العظائم من الدعاوي، ونزع من أنوار حقائق صدق المعاني. ومن لزم الطريق بإرشاد شيخ عالم ناصح أطلعه إلى

[136] كذا في الأصل.

منتهى القصد؛ لأنه يدله على أقرب الطرق وأسهلها، ويلاحظه في أوقاته إن يعترض عليه شيء من العوارض، فيرده إلى المحجة وإلى سواء السبيل. انتهى.

وكان الأستاذ أبو علي[137] رحمه الله يقول: "الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق، ولكن[138] لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقه نفسا نفسا، فهو عابد هواه، لا يجد نفاذا".[139]

فصل

ومن حكم المريد: إذا استيقظ من غفلته وتاب إلى الله وطلب شيخا متصفا بما ذكرنا تكون إرادته لله أولا، هاربا إليه، معينا[140] له على الطريق إلى سيده ومعبوده، يوحيه ويخوفه من الأسباب القاطعة عن مراده. قال الله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ [الأنعام: 52]. والإرادة عند أرباب السلوك: هي التجرد عن الإرادة، فلا تصح عندهم الإرادة إلا لمن لا إرادة له، وأصلها: نهوض القلب في طلب الحق. قال الدَّقَّاقُ: "الإرادة: لوعة في الفؤاد، ولدغة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تتأجج في القلوب".[141]

ومن صفات المريد: التحبب إلى الله بالنوافل، والإخلاص في نصيحة الأمة بالخلوة، والصبر على مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في رمق محبوبه،

---

137 هو: الحَسَن بْن عليّ بْن محمد، الأستاذ أبو عليّ الدّقّاق الزّاهد النَّيْسابوريّ. شيخ الصُّوفيّة، وشيخ أَبِي القاسم القُشَيْرِيّ. توفي في ذي الحجة سنة ست وأربعمائة، وقيل: سنة اثنتي عشرة وأربعمائة. انظر الوافي بالوفيات (103/12).

138 في الأصل: (ولاكن).

139 رواه القشيري في رسالته (574/2).

140 في الأصل: (معن)، لعل ما أثبته هنا هو الصحيح.

141 رواه القشيري في رسالته (352/2).

والتعرض لكل سبب يوصل إليه، والقناعة بالخمول، وعدم قرار القلب حتى يصل إلى وليه ومعبوده.[142]

قال حاتم الأَصَمّ[143]: "إذا رأيت المريد يريد غير مراده فاعلم أنه أظهر نَذَالَتَه".[144] وقال أبو عُثْمَان الحِيْرِيّ[145]: "من لم تصح إرادته ابتداء فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارا[146]".[147] وقال: "المريد إذا سمع شيئا من علوم القوم فعمل به صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به، فإذا تكلم انتفع به من سمعه، ومن سمع شيئا من علومهم ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياما ثم ينساها".[148]

وقال الواسطي[149]: "أول مقام المريد إرادة الحق بإسقاط إرادته". وقال بعض المحققين: "خرجت هداية المريد من الاجتهاد في قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ [العنكبوت: 69] وخرجت هداية المراد من المشيئة، وهو قوله تعالى: ﴿ويهدي من يشاء﴾ [يونس: 25] وهو الفرق بين المريد والمراد".[150] وقال يحيى بن معاذ: "أشد شيء على المريد

---

142 انظر: الرسالة القشيرية (353/2) بريقة محمودية (99/3).

143 هو: حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمن، المعروف بالأصمّ (ت: 237 هـ) من أهل بلخ. زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل. وكان يقال: حاتم الأصمّ لقمان هذه الأمة. انظر الأعلام (152/2).

144 انظر: الرسالة القشيرية (353/2).

145 في الأصل: (الجيري)، وهو تحريف، صوابه ما أثبته هنا. وهو: أبو عُثْمَانَ سَعِيْدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ بنِ سَعِيْدِ بنِ مَنْصُوْرٍ النَّيْسَابُوْرِيُّ، الحِيْرِيُّ، الصُّوْفِيُّ (230-298 هـ) هُوَ لِلْخُرَاسَانِيِّيْنَ نَظِيْرُ الجُنَيْدِ لِلْعِرَاقِيِّيْنَ. انظر سير أعلام النبلاء (43/11).

146 في الأصل: (أدبا)، والتصحيح من الرسالة القشيرية (353/2).

147 انظر: الرسالة القشيرية (353/2).

148 انظر: الرسالة القشيرية (354/2).

149 هو: أَبُو بَكْر مُحَمَّد بْن مُوسَى الواسطي، خراساني الأصل، من فرغانة، صحب الجنيد والنوري، أقام بمرو، وتوفي بِهَا بَعْد العشرين وثلاث مائة. انظر الرسالة القشيرية (108/1).

150 قال القشيري في رسالته (354/2): "فأما الفرق بَيْنَ المريد والمراد فَكُل مريد عَلَى الحقيقة مراد؛ إذ لو لَمْ يكن مراد اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بأن يريده لَمْ يكن مريدا، إذ لا يَكُون إلا مَا أراده اللَّه تَعَالَى، وكل مراد مريد؛ لأنه إِذَا أراده الحق سبحانه بالخصوصية وفقه للإرادة، ولكن الْقَوْم فرقوا بَيْنَ المريد والمراد؛ فالمريد عندهم هُوَ المبتدئ والمراد هُوَ المنتهى، والمريد الَّذِي نصب بعين التعب وألقى فِي مقاساة المشاق، والمراد الَّذِي كفى بالأمر من غَيْر مشقة، فالمريد معتن، والمراد مرفوق بِهِ". اهـ

معاشرة الأضداد".[151] سئل الجُنَيْد: ما للمريد حظ في مجارات الحكايات؟ فقال: "الحكايات جند من جند الله، يثبت الله بها قلوب المريدين". ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ [هود: 120].[152]

وقال العلامة ابن القَيِّمِ رحمه الله: "إذا صدق المريد وصح عقد صدقه مع الله فتح الله على قلبه ببركة الصدق وحسن المعاملة مع الله ما يغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار الناس وآرائهم، وعن العلوم التي هي فضلة ليست من زاد القبر، وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم التي أفنوا فيها أعمارهم من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها، ومعرفة مفسدات الأعمال وأحكام السلوك؛ فإن حال صدقه وصحة طلبه يريه ذلك كله بالفعل.

ومثال ذلك: رجل قاعد في البلد يَدْأَبُ ليله ونهاره في علم المنازل وعقباتها وأوديتها، ومواضع المباهات[153] فيها، والموارد والمفاوز، وآخَر حمله الوَجْدُ وصدق الإرادة على[154] أن يركب الطريق وسار فيها، فصدقه يغنيه عن علم ذلك القاعد، ويريه إياها في سلوكه عيانا. وأن إرادته تغنيه عن صدق إرادته عن علم الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها، وعن علم أحكام الله ورسوله على ظاهره وباطنه، فقد أعاذ الله أهل المعرفة من ذلك.

وأيضا فإن المريد الصادق يفتح الله على قلبه وينوره بنور من عنده، مضاف إلى ما معه من نور العلم، يعرف به كثيرا من أمر دينه، فيستغني به عن كثير من علم الناس؛ فإن العلم نور، وقلب الصادق ممتلئ الصدق، ومعه نور الإيمان، والنور يهدي إلى النور". انتهى.[155]

---

[151] انظر: الرسالة القشيرية (354/2).

[152] رواه القشيري في رسالته (354/2).

[153] في مدارج السالكين المطبوع: (المتاهات).

[154] في الأصل: (على على).

[155] انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (348/2).

وقال الجنيد: "إذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه إلى الصوفية، ومنعه من صحبة غيرهم".[156] أي: هم يهذبون أخلاقه باستخدامهم إياه لله، وصحبة الإخوان وحملهم إياه على ما لهم فيه من الصفاء الكائن به المصافاة. والإرادة للشيخ لا تصح إلا بإرادة غير شيخه في سلوكه. فمتى رأيت المريد يتوجه إلى غير شيخه بإرادة، من غير أن يأذن له شيخه دل على نقصان أهلية شيخه عنده، ومتى نقص شيخه عنده حرم الانتفاع به، نسأل الله العافية. فمتى صحت إرادة المريد مع شيخه أورثته صحة الإرادة معه إلى صحة إرادته مع الله، فحينئذ يصير مرادا بعد أن كان مريدا.

ومن لم تصح إرادته مع شيخه العارف كان مذبذبا، لا مريدا ولا مرادا، وكان مع هواه حيثما مال مال معه، نعوذ بالله من الخذلان. قال ذو النون المصري: "إذا خرج المريد عن حوزة الأدب يرجع إلى حيث جاء".[157] وكيف يريد مفتون بحب الرياسة صحة إرادة من يريده؟ وهو لم يصح له إرادة مع شيخه؟ فهذا حمق محض.

وعلامة صحة إرادة المريد: تعلق قلبه بشيخه، واستغراقه في مشاهدته في الغيبة والحضور، حتى لا يشهد معه من الخلق أحدا غيره. فإذا صح له هذا المشهد انتقل منه إلى مشهد الجمال السرمدي، وهذا الذي لا يشهده إلا أهل المعرفة بالله، لا الغبي الجاهل المفتون بشهوة نفسه الأمارة، الجامد الذي ليس عنده شيء من الروحانية. قال بعضهم:

إذا أنت لم تَعْشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى * فكنْ حَجَرًا [مِنْ] يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا[158]

---

[156] رواه القشيري في رسالته (353/2).

[157] انظر: الرسالة القشيرية (449/2).

[158] انظر: ديوان الأحوص (35).

فصل

وأما لبس الخرقة المباركة فقد لبسها من العلماء والحكام والزهاد ما لا يحصي عددهم إلا الله. وعلى المريد لبس الخرقة المباركة من الشيخ المسلك تبركا بهم، واقتداء بقوله صلى الله عليه وسلم: «من كَثَّرَ سَوَادَ قوم حشر معهم»[159]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «التبريزية» له: "لبست الخرقة المباركة للشيخ عبد القادر[160] وبيني وبينه اثنان". وذكر الإمام العابد الورع الشيخ جمال الدين أبو المُحَاسِنِ يوسف السامري الحنبلي[161] رحمه الله جماعة من الشافعية والحنابلة وغيرهم من المذاهب، أنهم لبسوا الخرقة. وذكر الإمام العالم العامل الورع أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبي رحمه الله: وذكر ما رواه البخاري في «صحيحه» عن أم خالد بنت خالد قالت: أتي النبي صلى الله عليه وسلم بثياب فيها خميصة سوداء، فقال: «من ترون أكسو هذه؟» فسكت القوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ائتوني بأم خالد» قالت: فأتي بي، فألبسنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لي: «أبلي وأخلقي» يقولها مرتين، وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أصفر وأخضر، ويقول: «يا أم خالد هذا سنا، يا أم خالد هذا سنا». والسنا بلسان الحبشة: الحسن.[162]

ثم قال رحمه الله: موضع الدليل من الحديث أن إلباس رسول الله صلى الله عليه وسلم الخميصة السوداء لأم خالد تشريع وتقرير؛ إذ الفعل لا يصدر منه إلا بالوحي، ولم تزل الأولياء مستمرين على لباسها وإلباسها من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الآن.

---

[159] رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث عبد الله بن مسعود. وراوه ابن المبارك في كتاب الزهد والرقائق موقوفا على أبي ذر. انظر نصب الراية (346/4).

[160] هو: عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي (471- 561 هـ): مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين. من كتبه (الغنية لطالب طريق الحق).

[161] هو: يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن ابن عَبْد الهادي الصالحي، جمال الدين، المعروف بابن المِبْرَد (840- 909 هـ). من كتبه: (بدء العلقة بلبس الخرقة).

[162] رواه البخاري في صحيحه (5485)

فإذا جاءت[163] المريد التائب السعادة، وساعدته المشية والإرادة حصل له ندم على ما كان منه وصدر عنه، فنسأل الله أن يقيل عثرته ويغفر زلته، فيجد عند التوبة ولبس الخرقة حالتين: الشوق والحزن، فإنه إذا شم الخرقة وجد فيها نفس شيخه الذي يقدمه لباب الله تعالى، وتذكر برؤيتها نعم الله تعالى عليه، فيزداد شوقه إلى الأحوال الشريفة، ويأخذ في الاجتهاد والجد رغبة في الوصول إلى المقامات السنية، وإذا فكر فيما فاته من الطاعات في أوقات المخالفات ندم على ذلك، ويغلب عليه الحزن، فيبكي، فخرقة الصوفية من هذا السر الشريف. انتهى.

وذكر الإمام العالم العابد الزاهد جمال الدين أبو محمد عبد الله الحلاوي السُّعُوْدِيّ قدس الله روحه طريقة في لبس الخرقة وجوها شتى، وذكر في بعض طرقه ممن لبس الخرقة المباركة من العلماء والقضاة والزهاد والعباد ما يخرج ذكره عن حد الاختصار.

ثم ذكر خطبة بليغة عن والده في وصف هذه الطائفة المباركة قال في آخرها: "وبعد، فإن ثوب الفقر أزهى ملبسا، وأزكى مغرسا، وأشرف جلبابا، وأكثره عند الله ثوابا، وأعظم تاجا على محل الرؤوس، وأنفع عودة دفع بها كل بؤس، وقد جعل الله أقواما هم بشروطها قواما ومشايخ تناقلوها إماما إماما ووراثا، تلقوها عن أب وجد، وانتهوا فيها إلى ماجد، وألهم من جد، فرحمة الله عليهم". انتهى.

قال صاحب «العوارف»[164]: لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ والمريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم شائع في الشرع لمصالح دنيوية، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق في طلبه، يقصد شيخا بحسن عقيدة، يحكمه في نفسه لمصالح دينه، ويعرفه طرق المواجيد، وينصره بآفات النفوس وفساد الأعمال، فلبس الخرقة إظهار للتصرف فيه، وعلامة التفويض له، ودخوله في حكمه". انتهى.

---

[163] في الأصل: (جات)، لعل صوابه ما أثبته هنا.

[164] انظر: عوارف المعارف (60).

فمن بركتها: ما روي عن جعفر الخُلْدِيّ[165] أنه قال: دخلت على بعض شيوخي، فأعطاني قلنسوة، فجعلتها على رأسي، ثم خرجت عن البلد، فجزت على أجمة، فخرج علي السباع، فكانوا يقربون مني، ويتذللون، فتحيرت في، ثم رجعت إلى أمري، فإذا هم يفعلون ذلك لقلنسوة الشخ.

وقال بعض المشايخ: "حرمة الشيخ للفقير [وقائم][166] ووقاية". وفيه تحريض على خدمة المشايخ ولبس الخرقة منهم. قال أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبي رحمه الله: "فالطواقي والعمائم والقلانس والطراطير والثياب والجباب والمرقعات والأقبية من أي نوع كانت والبرانس والأكسية والأَفْرِيَة[167] والجلود التي تلبس، وشقاق القطن وشبهها، والسجادات، هذه كلها خرق، وسواء كانت قديمة أو جديدة أو مخيطة أو غير مخيطة". انتهى.

فصل

والخرقة أربعة: خرقة قدوة، وخرقة صحبة، وخرقة بركة، وخرقة رواية، والمعول عليها خرقة القدوة؛ إذ هي الأصل، ويحتاج لبسها إلى إيجاب وقبول، والإيجاب من المريد، والقبول من الشيخ، ويجوز عكس ذلك، فإنه إن كان الإيجاب من الشيخ فيكون كإيجاب النبي صلى الله عليه وسلم وإلباسه الخميصة لأم خالد بالحكم والإرادة، وإن كان الإيجاب من المريد فيكون كالخاطب والتخيير للشيخ في القبول والرد. فإذا قبله وأجاب سؤاله فسنة المشايخ أن يأخذ يده، ويوصيه بتقوى الله، والعمل بطاعته، وبر الوالدين، والمحافظة على جميع العبادات، وملازمة العلم الذي لا بد منه، والحب لأولياء الله، والبغض لأعدائه، ويأخذ عليه عهد الله

[165] هو: جعفر بن محمد بن نصير، أَبُو محمد الخلدي (253- 348 هـ): شيخ الصوفية في أيامه ببغداد، وأعلمهم بالحديث. كان خوّاصا (يبيع الخوص، وهو ورق النخل) نسبته الى (قصر الخلد) ببغداد ولم يكن منه وانما دعاه (الجنيد) بالخلدي، فلزمه. حج 56 حجة. انظر الأعلام (128/2).

[166] كذا في الأصل. وهو مشكل. ولم يظهر لي صوابه. والله أعلم.

[167] قال في غلط الضعفاء من الفقهاء (27): ويقولون في جَمْعِ فَرْوٍ: (أَفْرِيةٌ). وصوابُهُ: فِراءٌ. اهـ

وميثاقه بالوفاء بها وصاه به. وعلى هذا مضت سنة المشايخ في كل من تاب وألبس الخرقة، وسواء كانت من عند الشيخ أو المريد، أو من عند غيرهما. ولا يشترط فيها أن تكون من عند الشيخ، ولا ملكه، ولا من لباسه، بل بركتها المعتبرة وضعها على رأس المريد كالطاقية وشبهها، أو على بدنه كالثوب وشبهه. والمقصود بركة الشيخ في لبسها بيده، ووضعها على المريد. وإن كانت من لباس الشيخ فكانت أبرك وأفضل؛ لأن قُرَّةَ بنَ هُبَيْرَةَ سأل النبي صلى الله عليه وسلم ثوبين من ثيابه قد لبسهما فكساه.[168]

ولا بد للابسها من عزم واستخارة، وعقد نية بالتوبة قبل لبسها، وأنها عقد نسبة بينه وبين طريق الحق تعالى. فإذا صح عزمه فيتوضأ بنية التوبة، ويصلي ركعتين، ويقعد بين يدي الشيخ مستقبل القبلة، وعليه سكينة ووقار، ويكون وجلا خائفا أن لا يقبل، ويسأل الشيخ أن يكون من جملة من يلوذ بخدمته، ويدخل تحت حرمته، ويلين له القول. فإذا ألبسه الخرقة على هذه الصفة المذكورة قام فصلى ركعتين، ثم يحمد الله تعالى ويشكره على ما ألهمه، وسخر له شيخه حتى أكرمه، ويقرئ الاستغفار، ثم يقوم فيقبل رأس شيخه أو يده، ويعانق إخوانه الفقراء والمحبين لهم. وقد قبل عبدُ الله بن السّائِبِ رأس النبي صلى الله عليه وسلم. وعانق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا الهَيْثَمِ بنَ التَّيْهَانَ. فإن كان الشيخ شابا قبل يده، وقد قبل كعب بن مالك رضي الله عنه لما نزلت توبته يد النبي صلى الله عليه وسلم.

وليتحفظ بالخرقة ولا يمتها باللباس، وليتحر بلبسها أوقات المناجات، أو في الأعياد والجمعات، أو عند حضور الإخوان في مجالس الذكر، ويوصي أهله إن مات تدفن معه؛ لأن

---

168 رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (1490) بسنده عَنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: قُرَّةُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْقُشَيْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ لِي رَبَّاتٌ وَأَرْبَابٌ نَعْبُدُهُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَبَعَثَكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَدَعَوْنَاهُنَّ فَلَمْ يُجِبْنَ وَسَأَلْنَاهُنَّ فَلَمْ يُعْطِيْنَ وَجِئْنَاكَ فَهَدَانَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْلَحَ مَنْ رُزِقَ لُبًّا أَفْلَحَ مَنْ رُزِقَ لُبًّا» . فَقَالَ: " يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْسُنِي ثَوْبَيْنِ مِنْ ثِيَابِكَ قَدْ لَبِسْتَهُمَا فَكَسَاهُ، فَلَمَّا كَانَ بِالْمَوْقِفِ مِنْ عَرَفَاتٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعِدْ عَلَيَّ مَا قُلْتَ» . فَأَعَادَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رُزِقَ لُبًّا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رُزِقَ لُبًّا». اهـ

معاوية بن أبي سفيان أوصى أن تدفن في الثياب التي دفعها له رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأوصى بعض الفقراء إذا مات أن تدفن معه خرقة شيخه، ففعل ذلك، فرآه بعض الصالحين في المنام، فسأله عن أمره، فقال: سألني الملكان، فقلت لهما: تسألاني، وخرقة سيدي فلا معي؟!.

فصل

قال أبو [عبد الله][169] الشاطبي: "وللمريد أن يلبس خرقة الصحبة من مشايخ عدة؛ لاكتساب الأخلاق الجميلة، وكذا خرقة البركة، وكذا خرقة الرواية؛ إذ المطلوب منها تكثير الأسانيد كرواية الحديث". انتهى.

والأولى بلابس خرقة الصحبة الاقتصار على شيخه العارف بوظائف العبادات والأوراد، وصلاح الأعمال وفسادها، والرجوع إلى غير شيخه قريب من رجوع لابس خرقة القدوة إلى غير شيخه؛ لأن شيخ القدوة إذا تقيد به المريد أقبل عليه بقلبه، ومال بكليته إليه، ولقنه الأسماء والأذكار، وعلمه الدعاء والاستغفار، ورتب له الأوراد، ووصف له ما يحمله من الصيام والإفطار، ومده بهمته ونفسه إلى أن يقوى أمره، ويظهر خيره، ويتعلق خاطره به، ويحصل له السرور بسببه، فإذا انتقل عنه إلى غيره شوش قلب شيخه، وغير خاطره من تبدد خاطر مريده، وتفرقته بعد جمعيته، ويتطرق بإساءة الظن من لا يعلم حقائق أن المريد إنما انتقل من شيخه لأمر باطن اطلع عليه يقتضي الانتقال عنه، ويتولد من الشيخين الشحناء والبغضاء، فيتضرر شيخه بذلك، ويتضرر جميع أصحابه. وقلوب المشايخ تحفظ وتراعي، حذارا من العقوبة بسببها، وهو من أعجل الأشياء عقوبة ومكافأة، ومن لم يحفظ القلوب لم يحفظ الله عليه قلبه. ومن غير قلب شيخه عليه غير الله عليه قلبه، وأتته المحن والبلايا، وعاجلته الفتن والرزايا، وابتلي بضيق الرزق، واحتقاره بين الخلق، نعوذ بالله من سوء المنقلب. فلابس خرقة

[169] في الأصل: (عبد).

الصحبة قريب من هذا؛ إذ المراد بلبس خرقة الصحبة ملازمة شيخه والأخذ عنه ما تقدم ذكره من الأوراد والعبادات.

ولابس خرقة القدوة يفارقه في حفظ الأوقات والساعات والأنفاس، بحيث إن لا يخفي عن شيخه العارف من هذه الأوقات مما يرد عليه فيها شيئا، خيرا كان أو شرا، فإن أخفي عنه منها شيئا فقد خانه.

وللشيخ أن يوكل على إلباسها عنه من يرضاه، ويجيز فيها من يراه، ويبعث بالخرقة لمن بعد عنه، ويكون ذلك إلباسا، إلا أن حضور المريد بين يدي الشيخ ولبسه منه أفضل لما في ذلك من زيادة النظر إليه، والتبرك برؤيته، قاله أبو عبد الله الشاطبي.

وقال الشيخ الإمام العارف بالله القدوة الشيخ عبد القادر الجيلي قدس الله روحه: "الأصل في لبس الخرقة عندي وسم المريدين بزي أهل الخير، حتى يستحيي بسبب الخرقة، فيرجع إلى ما كان فيه من الذنوب، فهي قيد الله من الدخول فيما لا يليق به، والمحافظة لغير جنسه، وهو أصل وأساس يبنى عليه بداية دخول الباب، تطريق بين يدي المريد، تسهيل وتقريب له، والانتماء إلى شيخ عالم بحكم الله وعلمه، يدله على ربه عز وجل، والتأدب بأدبه، والتعلم منه، وحسن الظن فيه، والقبول لأمره، والاقتداء به في جميع التصاريف والأحوال والأقوال والأعمال". انتهى.

وأنشد بعضهم:

إذا المرءُ لَمْ يظفرْ بشيخٍ يَسُوْسُهُ * ولا هُوَ ذُوْ علمٍ بآفاتِ نَفْسِهِ
فذَاكَ دُعِي حَائِرٌ في طريقِهِ * يروح ويغدو في عِمَايَةِ لُبْسِهِ

فصل

ومن أدب المريد: إعانة الله على الاستماع من شيخه، وامتثال ما يسمعه، لا يتركه يخالط غير أصحابه وأتباعه اللذين تحت نظره، ولا يمكنه من زيارة أحد، إلا من تجب عليه زيارته، أو يزداد بزيارته خيرا، ولا يمكن أحدا إلا من[170] لا بد منه.

ويتعين على الشيخ إذا تحقق أن المريد يزدريه أو ينظره بعين نقص، أو تقليل حرمة، أو يعترض بظاهره أو بباطنه أن يعزله عن نفسه، ويطرده عن بابه، وبعيد أن تحسن حالته، أو ترجى إنابته، أو يفلح.

قال أبو عبد الله الشاطبي: سمي مريد تلميذا[171]، وتابعا، ومسترشدا، وسالكا، ومقتديا، ومتعلما، ومستفيدا. وهذه الأسماء كلها متقاربة المعنى، وفي تسميته مريدا توسع ما من حيث إنه مسلوب الإرادة مع شيخه، ولكن يصح ذلك بمعنى أنه طالب ما ليس عنده، وراغب في تحصيل ما لم يصل إليه.

ولا بد له من لوازم تلزمه فمنها: أن يختار أولا لمن[172] يقتدي وتميل نفسه إليه، ويطيب قلبه عليه. وقد قالت السادة من علماء هذه الطريقة: "من لم يكن له شيخ كان الشيطان شيخه".[173] وأجمعوا على أن من كان نشئ نفسه لم يفلح، ولم يجئ منه شيء. وهذا صحيح؛ لأن من اقتدى بنفسه، وانفرد في طريق الله برأيه كان أقرب إلى الخطاء من الصواب، وأسرع إلى الإثم من الثواب.

ومنها: أن يطلع شيخه على أموره كلها، جليها وخفيها، فإن كتمه شيئا من ذلك كان غاشا لنفسه، ساعيا في إتلافها.

---

170 في الأصل: (من إلا من).

171 في الأصل: (وتلميذا). لعل الصحيح بدون الواو كما أثبته هنا. والله أعلم.

172 كذا في الأصل، لعل الأحسن: (من).

173 ذكر نحوه القشيري في رسالته (574/2) عن أبي يزيد البسطامي، ولفظه: من لَمْ يكن لَهُ أستاذ فإمامه الشَّيْطَان. اهـ

ومنها: أن يعتقد أن شيخه عالم بالله، أمين لله، ناصح لله، وأن ليس أحد من المشايخ في وقته بمنزلته، وقربه من ربه بالمعنى الذي يتقرب به الأولياء إلى الله من غير عصمة يعتقدها فيه، ولا تنقيص لغيره من المشايخ.

ومنها: كتمان سر شيخه في جميع ما يلقيه إليه، ويحفظه عليه[174] إلا أن يأذن له في إفشاء ذلك عنه. فإن[175] أظهره من غير إذنه لم يأمن العقوبة للوقت، إلا أن يتداركه الشيخ فيصفح عنه.

ومنها: الوفاء بعهد شيخه، وترك الاعتراض على كل حال. وصدق الالتجاء إلى الله تعالى بإخلاص الدعاء له في الأوقات التي ترجي فيها الإجابة.

ومنها: استعمال زيارة شيخه مهما استطاع من غير تفريط فيما هو مكلف به، يقصد بذلك التبرك برؤيته، وحصول المنفعة والفائدة عند ذلك. وتفريغ قلبه، والإصغاء إلى ما يلقيه الشيخ. ويكون على طهارة في جوارحه، وفي باطنه. ويحذر أن يكون عنده اختيار للشيخ، أو تطلع على ما يكاشفه به مما في نفسه، وليست المكاشفة مما تتوقف المشيخة عليها، وإنما تتوقف على الأهلية بالأمور التي تقدم ذكرها. انتهى. وبالجملة: إنه على قدر قصد المريد في شيخه وصحة اعتقاده فيه ورؤيته إياه بعين الاحترام والتعظيم، يفتح له في باطنه، ويكشف له عن حالة شيخه على ما في نفسه.

قال الشيخ محمد النجار: وكان بأرض اليمن، أنه مر يوما في بعض شوارع زبيد في أيام بدايته، فوقع بصره على امرأة عند بابها، فافتتن بها، واستزله الشيطان، فدخل إليها، وهم بها، فسمع شيخه أبا محمد بن عبد الله الخطيب يقول -وهو في عدن- هكذا: أتفعل يا محمد؟ فذهب عنه رجس الشيطان، وخرج هاربا بعد ما كان كالسكران، وأدركه الله بلطفه من المهالك، وكان الشيخ السبب.

---

[174] في الأصل: (علي).

[175] في الأصل: (فإن فإن).

وكذا جرى لسفيان اليمني مع امرأة بغي في عدن، فلما دنا منها وهم بها ما شعر إلا وقد لطمه النجار المذكور على عينيه، فرجع عنها يرجف إلى خلفه، وهو لا يبصر، ثم أخذ معه من يقود إلى الشيخ، فلما وصل إليه تكلم الشيخ عليه، فقال له: يا سيدي، ادع الله لي أن يرد علي بصري، وأنا تائب إلى الله تعالى، فقال له الشيخ: أنا أدعو لك برد بصرك، ولكنك ما تموت إلا أعمى، فقال: رضيت، فدعا له، فرد الله عليه بصره، إلى أن بقي من عمره ثلاثة أيام، فعمي، ومات أعمى، رحمة الله عليه. وقد تقدم ما فيه كفاية من أدب المريد لمن تأدب واستفاد.

فصل

وأما العهد الذي يأخذه الشيخ على المريد فلا بد أن يكون على شرط مشروع، مثل أن يأخذ عليه عهد الله وميثاقه بالوفاء بما وصاه من تقوى الله، ولزوم طاعته، وقد تقدم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «بايعوني، على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفى عنه، وإن شاء عاقبه». قال الراوي: فبايعناه على ذلك[176]. متفق عليه.

فانظر كيف بايع على الشرط خلافا لمن يبايع لنفسه، وهو أن يقول الشيخ للمريد: أبايعك على أن تكون مريدا لي دون غيري، فيربطه به، ليتكثر به، وإن كان هذا في معرض مبايعة التوبة، وقصده التكثر به فهو باطل؛ لأنه لم يخلص مبايعة التوبة لله.

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، ولو كان مائة شرط»[177]. فإن عاهد لنفسه من غير شرط موافق للكتاب والسنة فهو باطل. وليس

---

[176] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (18) من حديث عبادة بن الصامت.

[177] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (2060) من حديث عائشة.

للمريد أن يقف مع هذا العهد، ولا سيما إن كان جاهلا بسلوك الطريق، وعليه أن يقصد شيخا غيره يسلك به الطريق الموصلة إلى مقصوده. ولا بد للشيخ أن يبين للمريد طريق شيخه، مثل أن يقول: كان شيخي عالما زاهدا عابدا، وقصده بذلك نهوض همته، مثل أن تكون طريقة شيخه قادريا، أو بسطاميا، أو أحمديا، أو غير ذلك، فيعرفه طريقة، وما كان عليه من العلم والعمل، لعله يتصف ببعض صفة منه. وهل كان طريق سيدي الشيخ عبد القادر وغيره من السادة المشايخ أهل السلوك إلا مقيدا بالعلم النافع الذي نتيجته العمل الصالح؟.

قال الحارث[178] المُحَاسِبِيّ[179]: "الخلق كلهم منازلهم عند الله على قدر علمهم بالله، وخشيتهم له على قدر الأعمال". وقال الجنيد: "طريقنا –أو قال: علمنا– هذا مقيد[180] بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ ويكتب لا يصلح أن يتكلم في علمنا".[181]

والمقصود: أن المريد إذا أخذ العهد مع الشيخ فيكون الشيخ كالشاهد عليه، وأن يكون مريدا له، ولزم الشيخ سلوكه في الطريق الحميدة الموصلة إلى الله، ولزم المريد تحكيمه في نفسه للشيخ فيما يأمره وينهاه، فحينئذ يصح العهد، وتدوم الصحبة، وإن أخل واحد منهما بشرطه انحل العهد وافترقا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾ [الفتح: 10].

وقال عبد القادر الكيلاني: "ومن شأن المريد حفظ عهوده مع الله، فإن نقض العهد في طريق الإرادة كالردة عن الدين لأهل الظاهر، ولا ينبغي للمريد أن يعاهد الله على شيء باختيار منه ما أمكنه، فإن في لوازم الشرع ما يستوفى منه كل وسع. قال الله تعالى في صفة قوم

---

[178] في الأصل: (الحرث).

[179] هو: الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (ت: 243 هـ): من أكابر الصوفية. كان عالما بالأصول والمعاملات، واعظا مُبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد. وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. من كتبه (آداب النفوس). انظر الأعلام (153/2).

[180] في الأصل: (مقيدا).

[181] انظر: الرسالة القشيرية (79/1).

ابتدعوها: ﴿ما كتبناها عليهم [إلا][182] ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾ [الحديد: 27]". انتهى.

ومقصودنا: صحة سلوك المريد كما قال العلامة ابن القيم: "وهو سلامته في سلوكه من الآفات والعوائق والقواطع، وإنما يصح بثلاثة أشياء: أحدها: أن يكون على الدرب الأعظم النبوي المحمدي، لا على الجواذب الوضعية، والرسوم الاصطلاحية، وإن زخرفوا لها القول، ودققوا لها الإشارة، وحسنوا لها العبارة، فتلك من بقايا النفوس عليهم، وهم لا يشعرون. الثاني: أن لا يجيب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدَّعَة. الثالث: أن يكون سلوكه ناظرا إلى المقصود. فهذه الثلاثة يصح السلوك، والعبارة الجامعة لها: أن يكون واحدا لواحد، في طريق واحد، فلا يغير طلبه ولا مطلوبه، ولا يتلون في طريقه". انتهى[183].

فصل

وأدب المريدين مع الشيخ حين يمشون: أن يكونوا أمامه؛ ليكون رقيبا عليهم بعينه، حافظا لما يرد عليهم من آفات الطريق، مشتغلا كل منهم بورده، مطرقا رأسه، غاضين أبصارهم. قال إبراهيم[184]: "ليس من المروءة كثرة الالتفات في الطريق".[185] فمشيهم أمامه أسلم لحال الشيخ، وأنفع لقلبه. روى جابر رضي الله عنه قال: "كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يمشون أمامه إذا خرج، ويدعون ظهره للملائكة".[186] إسناده حسن. وعن أبي

182 سقط من الأصل.

183 انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (164/3).

184 هو: إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبوعمران النخعي (46- 96 هـ): من مذحج، من أكابر التابعين صلاحا وصدق رواية وحفظا للحديث. قال فيه الصلاح الصفدي: فقيه العراق، كان إماما مجتهدا له مذهب. انظر الأعلام (80/1).

185 رواه ابن المرزبان (ت: 309 هـ) في المروءة (102).

186 رواه جماعة منهم أحمد في مسنده (14236) من حديث جابر بن عبد الله.

أمامة الباهلي رضي الله قال: "مر النبي صلى الله عليه وسلم في يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد، فكان الناس يمشون خلفه، فلما سمع صوت النعال جلس حتى قدمهم أمامه لئلا يقع في نفسه شيء من الكبر".[187] رواه أحمد وابن ماجه. وقال علي رضي الله عنه: "أخروا عني خَفْقِ نعالكم؛ فإنها مفسدة لقلوب الرجال".[188]

وينبغي للخادم أن يقوم خلف الشيخ لأجل حاجة تعرض له وغير ذلك. وعلى المريد -أعانه الله- حفظ لسانه من الوقيعة في إخوانه، وحفظ قلبه من الحسد لهم، أو يحقر أحدا منهم. ويعلم يقينا أنه لا يخطر بقلب عبد حقارة لأخيه المسلم إلا أظلم الله عليه قلبه، وشتت عليه همه، وأساءت الجوارح الظاهرة الأدب لشؤم ذلك الخاطر. ويكون دأب كل أخ اصطناع المعروف مع أخيه من القول والفعل، وهو قول الخير فيه حيا كان أو ميتا. وأن يلقاه بوجه طلق. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "من المعروف أن تلقى أخاك ببشر، وتسلم عليه، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه، وتؤاسيه ببعض ما في يدك". وقال ابن السَّمَّاك[189]: "عجبت ممن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه".[190]

وينبغي أن يوجب حق الفقراء على نفسه خصوصا أصحاب شيخه، ولا يرى له حقا واجبا على أحد منهم، بل لكل واحد منهم حقا واجبا عليه، وهو عاجز عن القيام به مع بذل المجهود. ولا يلح في قوله، ولا يماري فيه؛ لأن كل مريد يكون فيه بخل ولجاج وعمارة لا يجيئ منه شيء.

ويكون شأنه التواضع لهم؛ لأن العزة لا تقع إلا بقدر النزول، ألا ترى أن الماء لما أنزل إلى أصل الشجرة صعد إلى أعلاها، فكأن سائلا سأله: ما صعد بك ها هنا -يعني: في رأسها-

---

[187] رواه جماعة منهم أحمد في مسنده (22292) وابن ماجه في سننه (245).

[188] رواه أحمد في فضائل الصحابة (921).

[189] هو: أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بن صَبيح العِجْلِيُّ مَوْلاَهُم، الكُوْفِيُّ، ابْنُ السَّمَّاكِ. الزَّاهِدُ، القُدْوَةُ، سَيِّدُ الوعَّاظ. توفي سنة ثلاث وثمانين ومائة. انظر سير أعلام النبلاء (330/7).

[190] رواه ابن حبان في روضة العقلاء (237).

وأنت نزلت تحت أصلها؟، فكأن لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه الله. وقال تعالى: ﴿ولا تصعر خدك للناس﴾ [لقمان: 18]. قال ابن عباس ومجاهد[191] وعِكْرِمَة[192] وسَعِيْد بن جُبَيْر[193] والضَّحَّاك[194] ويزيد بن الأَصَمّ[195] وأبو الجَوْزَاء[196] وغير واحد: "لا تكبر على الناس، وتمل خدك حال كلامك لهم، وكلامهم لك على وجه التكبر عليهم والازدراء لهم".[197]

فصل

وعلى الشيخ -أعانه الله- إكرام المريد الصادق بما يليق بحاله؛ لأن ابن عباس قال: "أكرم الناس علي جليسي الذي يتخطى رقاب الناس حتى يجلس إلي، لو استعطعتُ أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلتُ".[198] وفي رواية: "إن الذباب يقع عليه[199] فيؤذيني".[200]

[191] هو: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكيّ، مولى بني مخزوم (21- 104 هـ): تابعي، مفسر من أهل مكة. أخذ التفسير عن ابن عباس. انظر الأعلام (278/5).

[192] هو: عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله (25- 105 هـ): مولى عبد الله بن عباس. كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. انظر الأعلام (244/4).

[193] هو: سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله (45- 95 هـ). أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. انظر الأعلام (93/3).

[194] هو: الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم (ت: 105 هـ): مفسر، كان يؤدب الأطفال. له كتاب في (التفسير). انظر الأعلام (215/3).

[195] هو: يزيد بن الأصم، أبو عوف العامري البكّائي الكوفي. روى عن عبد الله بن عباس، وأبي هريرة، ومعاوية. توفي سنة ثلاث ومائة. وقيل: أربع ومائة. انظر تاريخ الإسلام (276/7).

[196] هو: أوس بن عبد الله الربعي البصري. حدث عن: عائشة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص. وكان أحد العباد الذين قاموا على الحجاج. انظر سير أعلام النبلاء (217/5).

[197] انظر: تفسير البغوي (589/3).

[198] رواه ابن حبان في روضة العقلاء (117).

[199] في الأصل: (علي)، صوابه ما أثبته هنا كما في مكارم الأخلاق.

[200] رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (2/2).

قال النووي رحمه الله: "ينبغي للشيخ أن يؤدب المريدين على التدريج بالآداب السنية، والشيم المرضية، ورياضة نفوسهم بالدقائق الخفية، ويعودهم الصيانة في جميع أمورهم، والإخلاص والصدق وحسن النيات، ومراقبة الله تعالى في جميع اللحظات، ويعرفهم أن بذلك يفتح عليهم أنوار المعارف، وتنشرح صدورهم، وتتفجر من قلوبهم ينابيع الحكمة واللطائف، ويبارك في علمهم وحالهم، ويوفقون في أقوالهم وأفعالهم". انتهى.

وعلى الشيخ أن يسوس كل واحد بحسب حاله ،كمن له سبب يبين له ما يحل له فيه، وما يحرم عليه، مع ملازمة أوراده التي تليق بحسب طاقته. والمنقطع القيام بما يلزمه من عمارة وقته من علم وأوراد مع القيام بخدمة إخوانه الفقراء.

وعلى المريد ترك الأسباب الشاغلة عن السلوك إلا سببا لا بد منه لحاجة. وأن يتواضع لشيخه، ويتأدب معه، وينقاد له، ويشاوره في جميع أموره الظاهرة والباطنة، ويقبل قوله كالمريض العاقل، يقبل قول الطبيب الحاذق الناصح. ويكون الشيخ ناصحا له في دينه ودنياه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: « الدين النصيحة»[201].

ومن النصيحة إكرام المريد الصادق، وإرشاده إلى الطريق المستقيم، من التعليم والسياسة المرضية. ويكون سمحا في تعليمه في رفق، ويزهده في الدنيا، ويصرفه عن الركون إليها، والاغترار بها، ويعلمه أن الاشتغال بالله مع العلم بالشريعة المطهرة هو طريق الجازمين وعباد الله العارفين. ويكون المريد على طريقة شيخه، لا يخرج عنها بشرط كمال أهليته كما تقدم.

---

[201] رواه مسلم في صحيحه (106) من حديث تميم الداري.

وكان يقول أبو النجيب السُّهْرَوَرْدِيّ[202]: "ولدي من سلك طريقي واهتدى بهديي". لأن المريد لا ينبغي له أن يأخذ سلوكه إلا من شيخ كملت أهليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، واشتهرت صيانته. قال محمد بن سيرين[203] ومالك بن أنس[204] وغيرهما من السلف: "هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم".[205] وكلما نظر المريد إلى الشيخ بعين الاحترام مع كمال أهليته ورجحانه على غيره كان أقرب للانتفاع به. قال الربيع[206] صاحب الشافعي[207]: "ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له".[208]

ولا يشيرن عنده بيده، ولا يغمزن بعينيه، ولا يقول: "قال فلان" خلافا لقوله، ولا يأخذ بثوبه، ولا يلح عليه في القول، ولا يشبع من طول صحبته، ويدخل عليه كامل الحال، متنظفا، متطهرا، فارغ القلب من الأمور الشاغلة، ولا يتخطى رقاب المريدين، ويجلس بينهم، ويفسحوا له إن أمكن، وإلا جلس خلفهم، إلا أن يشير إليه الشيخ فيمتثل أمره، ويجلس مع أقرب المريدين منه مودة، ولا يجلس وسط الحلقة إلا لضرورة.

---

202 هو: عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصدّيقي، أبو النجيب السهروردي (490- 563 هـ): فقيه شافعيّ واعظ، من أئمة المتصوفين. ولد بسهرورد. وسكن بغداد. فبنيت له فيها رباطات للصوفية من أصحابه، وولي المدرسة النظامية. وتوفي ببغداد. له (آداب المريدين). انظر الأعلام (49/4).

203 هو: محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر (33- 110 هـ): إمام وقته في علوم الدين بالبصرة. نشأ بزازا، في أذنه صمم. وتفقه وروى الحديث، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. واستكتبه أنس بن مالك، بفارس. وكان أبوه مولى لأنس. ينسب له كتاب (تعبير الرؤيا). انظر الأعلام (154/6).

204 هو: مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله (93- 179 هـ): إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. من كتبه (الموطأ). انظر الأعلام (257/5).

205 انظر: تدريب الراوي (353/1).

206 هو: الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي، بالولاء، المصري، أبو محمد (174- 270 هـ): صاحب الإمام الشافعيّ وراوي كتبه. انظر الأعلام (14/3).

207 هو: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله (150- 204 هـ): أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة. من كتبه (الأم).

208 انظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية (226/1).

فصل

قال المؤلف -أعاده الله من بركاته-: ونحن نذكر طريقنا في لبس الخرقة. لبست الخرقة المباركة من يد الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد الشيخ شهاب الدين أحمد الأرموي -تغمده الله برحمته-، وهو لبسها من يد والده الشيخ علاء الدين علي[209]، وهو لبسها من يد والده الفقير محمد[210]، وهو لبسها من يد والده الفقير إبراهيم، وهو لبسها من يد والده الفقير عبد الله يوسف بن يونس بن سليمان ابن السبكي الأرموي، وهو صحب بها سيدي الشيخ عبد الله البطايحي، وأخذ عنه، والشيخ عبد الله صحب بها سيدي الشيخ عبد القادر محيي الدين الكيلاني الحنبلي قدس الله روحه، ولبس منه وأخذ عنه، وسيدي الشيخ عبد القادر لبسها من يد الشيخ المبارك أبي سعد[211] علي المخرمي، ولبس المخرمي من يدي الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن يوسف القرشي الهكاري، ولبس الهكاري من يد الشيخ أبي الفرج الطرسوسي، ولبس الطرسوسي من يد الشيخ أبي الفضل التميمي، ولبس التميمي أبو الفضل من يد الشيخ أبي بكر بن محمد الشبلي، ولبس الشبلي من يد أبي القاسم الجنيد، ولبس الجنيد من يد الشيخ سري السقطي، وهو خاله، ولبس السري من يد الشيخ معروف الكرخي، ولبس معروف الكرخي من يد الشيخ داود الطائي، ولبس داود الطائي من يد حبيب العجمي، ولبس حبيب من يد الحسن البصري، ولبس الحسن البصري من يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلي كرم الله وجهه أخذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم.[212]

قال المؤلف رضي الله عنه: ولبست الخرقة البسطامية من يد الشيخ العارف القدوة عبد الله البسطامي، وأذن لي في تلبيسها، وهو لبسها من حضرة شيخه وقدوته الشيخ علي

---

[209] هذا السند ثبت في الأصل، وسقط من بدء العلقة.

[210] هذا السند ثبت في الأصل، وسقط من بدء العلقة.

[211] في الأصل: (سعيد)، صوابه ما أثبته هنا كما في طبقات الحنابلة (258/2).

[212] انظر: بدء العلقة بلبس الخرقة (60).

البسطامي، وهو لبسها من شيخه الشيخ محمد البسطامي، وهو صحب بها والده عبد الحميد البسطامي، وهو صحب بها والده فضل الله، وهو صحب بها عمه الشيخ سعود، وهو صحب بها عمه الشيخ شاهنشاه، وهو صحب بها والده الشيخ عليا، وهو صحب بها والده عبد الحميد، وهو صحب بها الشيخ عبد الله محمد الداستاي[213] البسطامي، وهو صحب بها الشيخ الحسن الدرزجي، وهو صحب بها الشيخ أبو بكر أمهيان[214]، وهو صحب بها الشيخ إبراهيم كثبان، وهو صحب بها [عمه][215] الشيخ أبا موسى، وهو صحب بها عمه الشيخ العارف أبا يزيد البسطامي، وهو صحب بها الإمام جعفر الصادق، وهو صحب أباه محمد الباقر، وهو صحب بها مع أبيه الإمام علي بن الحسين زين العابدين، وهو صحب بها مع أبيه الحسين بن علي، وهو صحب مع أبيه الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو صحب بها مع ابن عمه خاتم النبيين وإمام المرسلين صلى الله عليه وسلم.[216]

فهذه نسبتنا من حيث ظاهر الطريق، وأما من حيث باطنها فحال بيننا وبينها ظلمة الجهل، ورعونة النفس، ودعواها الكاذبة، وشهواتها المترادفة، وقد توعرت علينا الطريق، وقل الرفيق، واشتد المضيق، ووقعنا في شبكة الحرمان، ولم يبق لنا إلا إعانة الرحيم الرحمن، ولكن ولله الحمد نحن لهم محبون، وإلى رؤيتهم مشتاقون، وبكلامهم مستاقون ومضمنون بقوله صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحب».[217] فنحن وإن بعدت عنا منازلهم فبالمحبة على آثارهم ولأجل عين تكرم، فنسأل الله المانّ على أوليائه أن يمن علينا باقتفاء آثارهم، وأن يسلك بنا المسلك القويم، وأن يهدينا صراطه المستقيم، إنه الرحمن الرحيم.

---

[213] كذا في الأصل، وفي بدء العلقة (61): (الدنستاني).

[214] كذا في الأصل، وفي بدء العلقة (61): (مهمان).

[215] في الأصل: (الشيخ عمي) صوابه ما أثبته هنا، كما في بدء العلقة (61).

[216] انظر: بدء العلقة بلبس الخرقة (61).

[217] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (5816) من حديث عبد الله بن مسعود.

فصل

اعلم يا أخي -تاب الله علي وعليك-: أن أحدنا يفرح بكثرة المريدين وإقبالهم عليه، لعظم حب الرياسة عندنا التي أفسدت علينا طريقنا، حتى أن أحدنا إذا توجه من عنده مريد إلى عند من هو أكمل حالا منه، وأغزر علما، وأكثر إفادة، تغير عليه حاله، وعظم عليه إقباله على غيره، ونحن نشهد ونحقق زيادته عند غيرنا، واغوثاه بالله كيف الخلاص من هذه الآفة التي عمت بها البلوى! وهي حب الرياسة بكثرة الأتباع. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[218] رواه الترمذي.

كيف الخلاص؟ وحرصنا على فساد ديننا، وأحدنا يجلس في مكان يعرف فيه من زاوية وغيرها، ويريد الناس أن تتوجه إليه بالإكرام والتعظيم، وقضاء الحوائج، وأن يوقفوا عليه، أو يأتوه بالفتوحات والزكوات وغيرها من الدنيا، وكم جهد أحدنا ما يعمل؟ وأين العمل؟ مع حرصه على فساد دينه الذي هو رأس ماله بهذه الخصلتين، وإن قارنهما رياء وعجب وكبر حصل الهلاك لا محالة، واغوثاه بالله.

ومع هذه البلوى نفتري الكذب من الدعاوي الباطلة، ونلبس أثواب غيرنا، ولا نستحيي، وندعي الوصول، ولم ندر ما الأصول، وما تم محصول، ونأمر ولا نفعل، وننهى ونفعل، ونحن نسمع كلام ربنا تبارك وتعالى يقول: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف:3]، ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ [البقرة: 44]، وقال تعالى إخبارا عن شعيب عليه السلام: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ [هود: 88]. وقال صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقي في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا، فيجتمع إليه أهل النار،

[218] رواه جماعة منهم الترمذي في سننه (2376) من حديث كعب بن مالك.

فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[219]. متفق عليه. ومعنى الأقتاب: الإمعاء، أي: تخرج. واغوثاه بالله كيف الخلاص؟!.

وأحدنا لم يحصل له اليقظة، وهي أول المنازل، ثم التوبة، ونفوسنا الأمارة بالسوء ندعي المشيخة، وهي آخر المنازل، ولبعضهم: كم يدعي وصل ليلى من لا عرف قط بابها، وكم يبخر ثيابه من جسمه عريان، من أمسك المسك كفه لنبذ[220] نشره ينشر، ومن وقد نارا وجد دهما[221] يظهر الدخان.

يا فقراء يا سادة! -وهبكم الله من حسن المعاملة- تعطفوا بحسن التوجه إلى الله على المتخلف المنقطع الذي أسرته ذنوبه، وقد أشرف على التلف إن لم يتداركه الله بعفوه.

وقد أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: «إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة»[222]. قال ابن تيمية: "إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة من دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله ومحبته، وحلاوة ذكره، والأنس بقربه، في بيت ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها؟". انتهى.[223]

لا جرم أن أحدنا يجلس يذكر الله ولا يجد في قلبه أنسا ولا حلاوة، وقد عسر العلاج، وضاقت الحيل، ولم يبق لنا إلا عفو سيدنا ومولانا، ورحمته التي وسعت كل شيء.

يا فقراء! ليس العمل على الأطلال. الشأن في الساكن ليس هو في الزوايا والدلوق والسجادات، وتوجه الخلق بالإكرام والتعظيم وقضاء الحوائج. الشأن في دوام الافتقار إليه، والاستعانة به عند كل نائبة وقادحة، والمعهود منه كل بر وكرامة الذي عنت له الوجوه،

---

[219] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (7592) من حديث أسامة بن زيد.

[220] كلمة غير واضحة في الأصل.

[221] في الأصل: (ومن وقد نار وجد دهم).

[222] رواه جماعة منهم ابن ماجه في سننه (3650) من حديث علي بن أبي طالب.

[223] انظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (170/1).

وخشعت له الأصوات، الذي لا تسكن الأرواح إلا بحبه، ولا تطمئن القلوب إلا بذكره، ولا تزكو العقول إلا بمعرفته، ولا يدرك النجاح إلا بتوفيقه، ولا تحيى القلوب إلا بنسيم قربه ولطفه، ولا يهتدي الضال إلا بهدايته سبحانه، ما أكثر خيره وإحسانه على من أقبل عليه!.

يا فقراء! قد أهلكنا الوقوف مع الخيال وهو سراب، وأجبنا داعي البطالة والسقوط إلى النذالة، ووقفنا مع الرسوم التي حجبتنا عن طريق القوم الذين علت هممهم، ولم يقفوا مع غيره، ولا تعوضوا عنه بشيء، ولا رضوا بغيره بدلا منه، ولم يبيعوا حظهم من الله وقربه، والأنس به، والفرح والسرور بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية؛ لأن هممهم علت كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم؛ لأن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل جانب؛ لأنها قواطع وموانع عن الوصول إلى المقصود. واغوثاه بالله كيف سقطت نفوسنا الخسيسة على الجيف والقاذورات والمزابل؟!.

ويا ليتنا عرفنا مقدارنا، بل بجهلنا دخل علينا داء الهوى، وفضحنا بقوله تعالى: ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ [آل عمران: 188]. والذي بعثنا على الدعوى الكاذبة قلة الحياء من الله؛ لأن الحياء يوجب الصمم، وخمود نار الدعوى. وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: «دعه فإن الحياء من الإيمان»[224]. وفي «الصحيح» عنه صلى الله عليه وسلم: «إنما[225] أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[226]. وهذا أمر تهديد، ومعناه: من لم يستح صنع ما شاء. واغوثاه بالله! أوردنا قلة الحياء موارد الهلكة، نتزين للناس بظواهرنا، والله يعلم فساد بواطننا، ومن تزوق تعوق.

---

[224] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (24) ومسلم في صحيحه (63).

[225] كذا في الأصل.

[226] رواه البخاري في صحيحه (3296) من حديث أبي مسعود.

وقلة الحياء من موت القلب، وكلما كان القلب حيا كان الحياء أتم. قال الجنيد: "الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء".[227] وحقيقته: خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق؛ لأن عمارة القلب بالهيبة والحياء، فإذا ذهبا من القلب لم يبق فيه خير. واغوثاه بالله! كيف وقلوبنا خراب من قلة الحياء، ومتنجسة بنجاسة الكبر والعجب، وحب الرياسة وغير ذلك.

وإلى هذا المعنى أشار شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه قال: "إن طهارة الثوب الظاهر والبدن إذا كانت شرطا في صحة الصلاة والاعتداد بها، فإذا أخل بها كانت فاسدة، فكيف إذا كان القلب نجسا ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يعتد له بصلاته، وإن أسقطت القضاء؟، وهل طهارة الظاهر تصح إلا بتكميل طهارة الباطن؟. ومن هذا: استقبال القبلة في الصلاة شرط في صحتها، وهي بيت الرب، فتوجه المصلي ببدنه وقَالَبِهِ شرط، فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة؟، بل وجه بدنه إلى البيت، ووجه قلبه إلى غير رب البيت"[228].

واغوثاه بالله! وأحدنا يقوم إلى صلاته، لا يدري ما يقول، ولا يعلم بين يدي من هو واقف، وهي عمارة ديننا، ورأس مالنا، فكيف بما دونها من الأعمال؟ ومع هذا ندعي مع الله حالا، ونفتري الكذب، مثل أن نعرف بطريق، ولم ندر ما هي، ولا المقصود منها، ولم نسلك فيها حتى تعلم منازلها وغوائلها وآفاتها، ثم ندعي قطعها والوصول إلى غايتها، وهل هذا إلا من رعونات نفسونا، ودعواها الكاذبة بمقام المشيخة، ومعرفة السلوك؟!.

ولو فرضنا أن دعواها صادقة لزمها في ذلك ثلاثة مشاهد: مشهد الفقر والذل والعجز. الأول: مشهد الفقر مع الله حتى لو فتحت عليها الدنيا بحذافيرها لم يخرجها عن لذة افتقارها إلى الله تبارك وتعالى. الثاني: مشهد الذل، وهو أن لو توجهت إليها جميع الخلق

[227] انظر: الرسالة القشيرية (370/2).

[228] انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (391/2).

بالتعظيم والإكرام والمهابة لم يخرجها عن ذلها لربها تبارك وتعالى. الثالث: مشهد العجز، وهو لو أعطيت من القوة ما عسى أن تعطي لم يخرجها عن عجزها بين يدي ربها ذي القوة المتين. ويزاد مشهد رابع: وهو مشهد الجهل، حتى إنها لو بلغت من العلوم ما عسى أن تبلغ لم يخرجها عن جهلها مع العليم الخبير. ألا ترى إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أعطاه الله من نفائس العلوم، كيف أرشده إلى الافتقار إليه في طلب العلم بقوله: ﴿وقل رب زدني علما﴾ [طه: 114]. فإذا شهدت هذه المشاهد تحصنت من الكبر والعجب والرياء، فحينئذ يكون نطقها بالله، وصمتها بالله، وحركاتها وسكناتها في مراضي الله، فحينئذ يظهر نورها، فيشهده المريد الصادق، فيسكن إليه، ويخضع له، ويستضيئ في سلوكه حتى يصل إلى مقصوده.

فهكذا يكون الشيخ والمريد في طريق الحق، لا دعوى، ولا رعونة، ولا تلبس، بل فقر محض من كل وجه إلى الغني الحميد، والله يعلم المفسد من المصلح، ونحن المذنبون المساكين لم يبق لنا إلا رحمة ربنا، وتفضله وإحسانه، وما ستر علينا من القبائح التي لو اطلع عليها الخلق لرجمونا وطردونا، فكما سترها علينا في الدنيا فنسأله أن لا يفضحنا بها في الآخرة، إنه هو الجواد الكريم الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وهو أرحم بنا من الوالدة بولدها، وليس للمسيئ إلا المحسن، وليس للعبد الآبق إلا سيده ومولاه، وأين يذهب؟ وكل الأبواب مسدودة إلا باب سيده لا يغلق. فنسأله أن يمن علينا بما من به على أوليائه وأحبابه، وأن يدخلنا برحمته في جملتهم إنه أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فصل: في المتحابين في الله وشروط الصحبة

اعلم أيها الأخ: أن المحبة لله والمواخاة له والصحبة لأجله في الحضر والسفر طريق العاملين، لما فيها من الفضل والأمر والندب، إذا كان الحب في الله والألفة والصحبة والتزاور فيه كان من أقوى أسباب اليقين، قال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ [آل عمران: 103]. ﴿واعتصموا﴾ أي: تمسكوا ﴿بحبل الله﴾ والحبل هو السبب الذي يتوسل به إلى البغية. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: هو الجماعة. وقال: "عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة"[229]. ﴿ولا تفرقوا﴾ معناه: لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها[230]. قال السلمي: و"كما يجب على العبد السعي في طلب علم يتعلمه ليحسن به آداب خدمة سيده، كذلك واجب عليه أن يسعى في طلب من يعاشره ممن يعينه على طاعة مولاه".[231] قال بعض العلماء: "المؤمن يألف المؤمن، ويواليه طبعا وسجية[232]".[233]

وينبغي للفقير أن يجتنب عشرة طلاب الدنيا، فإنهم يدلونه على طلبها وجمعها ومنعها، وذلك الذي يبعده عن طلب نجاته، ويقطعه عنها، ويجتهد في طلب معاشرة أهل الخير ومن يدله على طلب الآخرة وطاعة مولاه. قال يوسف بن الحسين[234]: قلت لذي النون وقت مفارقته: أوصني، فقال: "عليك بصحبة من تسلم منه في ظاهر أمرك، وتبعثك على الخير صحبته، وتذكرك الله رؤيته".[235]

---

[229] انظر: تفسير البغوي (480/1).

[230] انظر: تفسير الخازن (392/1).

[231] انظر: آداب الصحبة (46)

[232] في الأصل: (وشجية). صوابه ما أثبته هنا.

[233] انظر: آداب الصحبة (46)

[234] هو: يُوسُف بْن الْحُسَيْن، شيخ الري والجبال فِي وقته، وَكَانَ نسيج وحده فِي إسقاط التصنع، وَكَانَ عالما أديبا، صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي، ورافق أبا سَعِيد الخراز، توفي سنة أربع وثلاث مائة. انظر الرسالة القشيرية (95/1).

[235] انظر: آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (17).

ويكثر من إخوان الصدق في الله كما قال بعضهم: "استكثروا من الإخوان في الله؛ فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك".[236] وذهب أكثر التابعين إلى استحباب كثرة الإخوان في الله، وبالتألف والتحبب إلى المؤمنين؛ لأن ذلك[237] زين في الرخاء وعون عند الشدائد، وتعاون على البر والتقوى، وألفة في الدين. وممن مال إلى هذه الطريقة: سعيد بن المسيَّب[238]، والشعبي[239]، وابن أبي ليلى[240]، وهشام[241]، وعروة[242]، وابن شُبْرُمَة[243]، وشُرَيْح، وشريك بن عبد الله، وابن عيينة، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، ومن وافقهم[244]. وقد روي: "أن المؤمن آلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤْلَف".[245] وقال يحيى: "إن أول خراب الرجل أن يفقد الحب في الله".

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله،

---

236 انظر: إحياء علوم الدين (171/2).

237 في الأصل: (في ذلك)، لعل صوابه ما أثبته هنا، كما في قوت القلوب (359/2).

238 هو: سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد (13- 94 هـ): سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. انظر الأعلام (102/3).

239 هو: عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري، أبو عمرو (19- 103 هـ): راوية، من التابعين، يضرب المثل بحفظه. ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة. انظر الأعلام (251/3)

240 هو: محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار (وقيل: داود) ابن بلال الأنصاري الكوفي (74- 148 هـ).

241 هو: هشام بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبو المنذر (61- 146 هـ): من أئمة الحديث، روى نحو أربعمائة حديث. انظر الأعلام (87/8).

242 هو: عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله (22- 93 هـ): أحد الفقهاء السبعة بالمدينة.

243 هو: أبو شبرمة عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن حسان الضبى الكوفى التابعى. فقيه أهل الكوفة. توفي سنة أربع وأربعين ومائة. انظر تهذيب الأسماء واللغات (272/1).

244 انظر: قوت القلوب (360/2).

245 رواه الطبراني في الأوسط (5787/58/6) من حديث جابر بن عبد الله.

وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»[246] متفق عليه. وقد تقدم من شروط المحبة لله.

ومن شرف المحبة لله: ما روي أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[247]. رواه مسلم. وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[248] رواه مسلم.

قوله: «لا تؤمنوا حتى تحابوا» معناه: لا يكمل إيمانكم، ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحابب، ولا تدخلون الجنة عند دخول أهلها إذا لم تكونوا كذلك، والسلام أول أسباب التألف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألف المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز[249] لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين، ويرفع التقاطع والتهاجر والشحناء، وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامة الله لا يتبع فيه هواه، ويخص به أحبابه. من «شرح مسلم»[250] للنووي رحمه الله. ومن حديث السبعة: «ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه»[251] وهو في «الصحيحين».

ومن فضل المحبة لله: ما روي أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ [الأنفال: 63]

---

[246] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (16) ومسلم في صحيحه (74).

[247] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (6640).

[248] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (104) من حديث أبي هريرة.

[249] في الأصل: (المميزة)، صوابه ما أثبته هنا.

[250] انظر: شرح صحيح مسلم (36/2).

[251] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (629) ومسلم في صحيحه (2344) من حديث أبي هريرة.

قال: "نزلت هذه الآية في نحو المتحابين في الله".[252] وروى أبو بشر عن مجاهد: "المتحابون في الله إذا التقوا فبشر بعضهم إلى بعض تَحَاتَّتْ عنهم الخطايا، كما يَتَحَاتُّ ورق الشجر".[253] وكان الفُضَيْلُ[254] وغيره يقولون: "نظر [الأخ][255] إلى وجه أخيه على سبيل المودة والرحمة عبادة".[256] وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المتحابين لترى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي، فيقال: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله عز وجل»[257]. رواه الإمام أحمد.

ومن فضل المتحابين في الله والتزاور فيه: ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله على مدرجته ملكا». وذكر الحديث إلى قوله: «إن الله قد أحبك كما أحببتني له»[258]. رواه مسلم. وعن معاذ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم والشهداء»[259]. رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

واعلم: أن للنصيحة وحسن العشرة آدابا، فمن ذلك: أن تعلم أن المسلمين كالجسد الواحد، لما روى النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره

---

[252] رواه الحاكم في المستدرك (3269) من حديث عبد الله بن مسعود.

[253] أخرجه أبو طالب في قوت القلوب (365/2)، وقد روى البيهقي نحوه في شعب الإيمان (8544) من حديث أنس مرفوعا.

[254] هو: الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي (105- 187 هـ): شيخ الحرم المكيّ، من أكابر العباد الصلحاء. كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعيّ. انظر الأعلام (153/5).

[255] لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام السياق، كما في قوت القلوب (365/2).

[256] انظر: قوت القلوب (365/2).

[257] رواه أحمد في مسنده (11829) من حديث أبي سعيد الخدري.

[258] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (6641) من حديث أبي هريرة. ولفظه: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ». اهـ

[259] رواه جماعة منهم الترمذي في سننه (2390) من حديث معاذ بن جبل.

بالحمى والسهر»[260]. وقال صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا»[261].

ومن آدابها: الصبر عليهم. لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[262]. رواته كلهم ثقات، ورواه الترمذي[263].

ومنها: حسن الخلق مع الإخوان والأقران والأصحاب. لما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[264]. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[265]. وقال بعض الحكماء: "عاشروا الناس معاشرة إن عشتم حنوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم".[266] وسئل الجنيد عن الأدب فقال: "حسن العشرة".[267] والفرق بين عشرة العلماء والجهال ما قاله يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: "إن

[260] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (6678).
[261] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (2314) من حديث أبي موسى الأشعري.
[262] رواه جماعة منهم البخاري في الأدب المفرد (388).
[263] رواه الترمذي في سننه (2507).
[264] رواه جماعة منهم البخاري في الأدب المفرد (289).
[265] رواه جماعة منهم الترمذي في سننه (1987).
[266] رواه السلمي في آداب الصحبة (65) وابن عبد الهادي في مراقي الجنان بالسخاء وقضاء حوائج الإخوان (88) من كلام علي بن أصمع.
[267] انظر: آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (35).

العلماء [عبدوا][268] الله بقلوبهم، و[عبدوا][269] الناسَ بأبدانهم، والجهال [عبدوا][270] الله [بأنفسهم][271]، [وهم عبدوه][272] بقلوبهم وأبدانهم وألسنتهم".[273]

فالمعاشرة مع الأكابر والمشايخ بالحرمة، والخدمة لهم، والقيام بأشغالهم. والصحبة مع الأقران والأوساط بالنصيحة لهم، وبذل الموجود. والصحبة مع الأصاغر والمريدين بالإرشاد والتأديب، والحمل على ما يوجبه ظاهر العلم، وآداب السنة، وأحكام البواطن، والهداية إلى تقويمها.

ومنها: قبول معاذيرهم. قال عبد الله بن محمد بن مَنَازِل[274]: "المؤمن يطلب معاذير إخوانه، والمنافق يطلب عثرات إخوانه".[275] وكان حمدون القصار يقول: "إذا زل أخ من إخوانكم فاطلبوا له سبعين عذرا؛ فإن لم تقبله قلوبكم فاعلموا أن العيوب أنفسكم حيث ظهر للمسلم سبعين عذرا فلم تقبلوه".[276]

ومنها: الصفح عن عثرات الإخوان. قال الفضيل بن عياض: "الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان".[277] وروي عن الأَصْمَعِيّ[278] قال: قال أعرابي: "تَنَاسَ مساوي الإخوان يَدُمْ لك وُدُّهم"[279]. ولمنصور الفقيه[280]:

---

[268] في الأصل: (عند)، والتصحيح من آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (35).

[269] في الأصل: (عبد)، والتصحيح من آداب الصحبة (71)، أي أن العلماء جعلوا أبدانهم خادمة لنفع الناس ومعينة لهم.

[270] في الأصل: (عند)، والتصحيح من آداب الصحبة (71) وآداب العشرة (35).

[271] كذا في الأصل وآداب الصحبة (71)، وفي وآداب العشرة (35): (بألسنتهم).

[272] في الأصل: (وعند الناس)، والتصحيح من آداب الصحبة (71) وآداب العشرة (35).

[273] رواه السلمي في آداب الصحبة (71) وانظر: آداب العشرة (35).

[274] هو: عبد الله بن محمد بن منازل، أبو محمد (ت: 329 هـ): صوفيّ، من أجلّ مشايخ نيسابور. صحب حمدون القصار. له طريقة تفرد بها. انظر الأعلام (120/4) الرسالة القشيرية (120/1).

[275] آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (14).

[276] آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (14).

[277] رواه القشيري في رسالته (380/2).

"هبني أسأت[281] كما زعمـ *** ـتَ فأين عاطفة الأخوةْ؟

فإذا أسأتَ كما أسأ ***تُ فأين فضلك والمروءةْ؟".[282]

ومنها: قلة الخلاف على الإخوان، ولزوم موافقتهم. قال إسماعيلُ بن نُجَيْدٍ[283]: سمعت أبا عثمان الحِيْرِيّ[284] يقول: "موافقة الإخوان خير من الإحسان إليهم".[285]

ومنها: حمل الإخوان على حسن نياتهم وحمدهم عليها، فإن لم يساعدهم بالعمل، لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نية المؤمن خير من عمله»[286]. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "من لم يحمد أخاه على حسن النيةلم يحمده على حسن الصنيعة".[287]

ومنها: أن لا يحسد إخوانه على ما يرى عليهم من آثار نعم الله تعالى، بل يفرح بذلك، ويحمد الله على ذلك؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «ولا تحاسدوا»[288].

ومنها: سلامة الصدر للإخوان والأصحاب، والنصيحة لهم، وقبول النصيحة منهم. قال سري السقطي: "من أخلاق الأبدال سلامة الصدر، والنصيحة للإخوان".[289]

---

278 هو: عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي (122- 216 هـ): راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. نسبته إلى جده أصمع. ومولده ووفاته في البصرة. وكان الرشيد يسميه " شيطان الشعر ". من كتبه (الأضداد). انظر الأعلام (162/4).

279 انظر: أدب الدنيا والدين (179).

280 هو: أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي المصري الفقية الشافعي الضرير. من كتبه: " الواجب " و " المستعمل " و " المسافر " و " الهدية ". توفي في جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة بمصر. انظر وفيات الأعيان (290/5).

281 في الأصل: (أسادت)، والتصحيح من روضة العقلاء (185).

282 انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (185). وفي آداب الصحبة (142) نسب الشعر إلى ابن أبي المنصور.

283 هو: أَبُو عُمَر إِسْمَاعِيل بْن نُجَيْدٍ، صحب أبا عُثْمَان، ولقي الجنيد، وَكَانَ كبير الشأن، آخر من مَات من أَصْحَاب أَبِي عُثْمَان. توفي بمكة سنة ست وستين وثلاث مائة. انظر الرسالة القشيرية (138/1).

284 في الأصل: (الجيري)، وهو تحريف، صوابه ما أثبته هنا. وقد سبقت ترجمته.

285 انظر: إحياء علوم الدين (180/2).

286 رواه جماعة منهم الطبراني في الكبير (5942/185/6) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

287 أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (181/2).

288 رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (5717) من حديث أبي هريرة.

ومنها: أن لا يعد إخوانه وعدا ثم يخلفه؛ فإنه من النفاق. لقوله صلى الله عليه وسلم: «علامة المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[290]. قال الثَّوْرِيّ[291]: "لا تعد أخاك موعدا فتخلفه، يستبدل بالمودة بغضة".[292] وأنشد أبو نَصْرٍ الوَزِيْرِيّ[293]:

يا واعد الوعد الذي أخلفا * ما الخُلْفُ من سيرة أهل الوَفا

ما كان ما أظهرتَ من وُدِّنا * إلا سِرَاجًا لَاحَ ثُمّ انْطِفَا

وانظر إلى تصحيفَةِ سَنَدٍ * فإنه أخلاقُ أهل الجَفَا[294]

ومنها: صحبة من يستحيا منه، ويحتشمه ليزجره ذلك عن المخالفات. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "أحيوا الطاعات بمجالسة من يُسْتَحْيَا منه".[295] وقال عبد الله[296] بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي[297] يقول: "ما أوقعني في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه".[298] وقال إسماعيلُ بن نُجَيْد: "عاشر من تحتشمه، ولا تعاشر من لا تحتشمه". قال عبد الله بن محمد بن مَنَازِل: سمعت أبا صَالِحٍ[299] يقول: "المؤمن يعاشرك بالمعروف، ويدلك على صلاح دينك

---

289 انظر: تنبيه الغافلين (572) آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (20).

290 رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (33) من حديث أبي هريرة.

291 هو: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر، أبو عبد الله (97- 161 ه): أمير المؤمنين في الحديث. من كتبه (الجامع الكبير). انظر الأعلام (104/3).

292 انظر: آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (21).

293 هو: محمد بن طاهر بن محمد بن الحسن بن الوزير، أبو نصر الوزيري. كان كثير العلوم، فصيحا، بارعا في الذكر والوعظ. وكان أولا حنفى المذهب ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعي. توفى فى شهر رمضان سنة خمس وستين وثلاثمائة. انظر طبقات الشافعية الكبرى (175/3).

294 انظر: آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة (21).

295 انظر: إحياء علوم الدين (173/2) الرسالة القشيرية (367/2).

296 هو: أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (213- 290 ه). انظر طبقات الحنابلة (184/1).

297 في آداب الصحبة (34) نسب القول إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل.

298 انظر: إحياء علوم الدين (173/2) آداب العشرة (22).

299 وهو: حمدون بن أحمد بن عمارة القصار النيسابوريّ، أبو صالح (ت: 271 ه)، وقد سبقت ترجمته

ودنياك، والمنافق يعاشرك بالمداجة[300]، ويدلك على ما تشتهيه، والمعصوم من فرق بين الحالتين".[301]

ومنها: حسن الصحبة مع الإخوان. لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[302]. قال أبو الحسن: سمعت أبا بكر عَيَّاش[303] يقول: "اطلب الفضل بالإفضال منك؛ فإن الصنيعة إليك كالصنيعة منك".[304] وعن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم إذا لقيته، وتوسع له في المجالس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه".[305] وسئل أبو عثمان الحِيْرِيُّ: كيف يصحب المؤمن أخاه على شرط السلامة؟ قال: "يوسع على أخيه بماله، ولا يطمع في ماله، وينصفه، ولا يطلب منه الإنصاف، ويستكثر قليل بره، ويستصغر ما منه عليه[306]".[307]

ومنها: أن يضع أمور إخوانه على أحسن الوجوه ما وجد لها وجها حسنا، وأن يجانبه الحقد، ولزوم الصفح والعفو. قال محمد بن المنذر[308]: سمعت هِلَال بن العَلَاء[309] يقول: "جعلت على نفسي أن لا أكافي أحدا بسوء ولا عقوق، وذهبت إلى هذه الأبيات:

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ على أَحَدٍ * أَرَحْتُ نَفْسِيْ من غَمِّ العَدَاوَاتِ

إِنِّي أُحَيِّي عَدُوِّيْ عندَ رؤيتِهِ * لِأَدْفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بالتَّحِيَّاتِ

---

[300] كذا في الأصل، وفي آداب العشرة (22): (بالمماذعة).

[301] انظر: آداب العشرة (22).

[302] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (13) من حديث أنس بن مالك.

[303] هو: شعبة بن عياش بن سالم الأزدي الكوفي الخياط، أبو بكر (95- 193 هـ): من مشاهير القراء.

[304] انظر: آداب العشرة (23).

[305] انظر: إحياء علوم الدين (181/2).

[306] في الأصل: (إليه)، والتصحيح من آداب العشرة (33).

[307] انظر: آداب العشرة (33).

[308] كذا في الأصل، وفي روضة العقلاء لابن حبان (224): محمد بن عثمان العقبي.

[309] هو: هلال بن العلاء بن هلال أبو عمر بن أبي محمد الباهلي. مولاهم الرقي الأديب، شيخ الرقة وعالمها. روى عنه النسائي، وتوفي سنة تسع وسبعين ومائتين. انظر الوافي بالوفيات (218/27).

وأُظْهِرُ البِشْرَ للإِنْسَانِ أَبْغَضُهُ * كأنه قَدْ حَشَى قَلْبِي محَبَّاتِ[310]

ومنها: الإغضاء[311] عن الصديق في بعض المكاره. أنشد عبد الحَمِيْد بن عبد الرحمن القاضي[312]:

صبرتُ على بعضِ الأَذَى خَوفَ كُلِّهِ * ودَافَعْتُ عن نَفْسِي بِنَفْسِي فَعَزَّتِ

وجَرَّعْتُهَا المكروهَ حتى تَدَرَّبَتْ * ولو جَرَّعْتُها جملةً لاشْمَأَزَّتِ

فَيَا رُبَّ عِزٍّ ساقَ للنفس ذُلَّةً * ويَا رُبَّ نَفْسٍ بالتذللِ عَزَّتِ[313]

وأنشد ثَعْلَب[314]:

أُغَمِّض عَيْنِي عن صديقي تَعَمُّشًا[315] * كأني بما يأتي من الأمرِ جاهلُ

وما بي جهلٌ غيرَ أنَّ خَلِيْقَتِيْ * تُطِيْقُ احتمال الكُرهِ فيما تُحاوِلُ[316]

ومنها: إعلامه[317] بمحبته لهم. لما روى أنس رضي الله عنه: أن رجلا كان عند النبي صلى الله عليه وسلم، فمر به رجل فقال: يا رسول الله، إني لأحب هذا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أعلمته؟» قال: لا، قال: «أعلمه»، فلحق به فقال: إني أحبك في الله، فقال: أَحَبَّكَ اللهُ الذي أَحْبَبْتَنِيْ له.[318]

---

[310] رواه ابن حبان في روضة العقلاء (169).

[311] في الأصل: (الأعضاء) لعل الصحيح ما أثبته هنا.

[312] كذا في الأصل، ولم يظهر لي المراد منه، وفي تاريخ دمشق (25/71) أنشده أحمد بن إبراهيم، أبو بكر البيروتي المؤدّب لإبراهيم الخواص. والله أعلم.

[313] رواه السلمي في آداب الصحبة (49) وانظر: آداب العشرة (27). وذكره الثعالبي (ت: 429 هـ) في الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب (5).

[314] هو: أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيبانيّ بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب (200- 291 هـ): إمام الكوفيين في النحو واللغة. من كتبه (الفصيح).

[315] كذا في الأصل، وفي آداب العشرة (27): (تجسما).

[316] رواه السلمي في آداب الصحبة (50).

[317] في الأصل: (إعلامهم)، لعل الصحيح ما أثبته هنا.

[318] رواه الحاكم في المستدرك (7321) من حديث أنس بن مالك.

وعن المِقْدَام بن [معدي كَرِبٍ][319]، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه»[320]. رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. قال العلماء: الإعلام هو الحث على التودد والتألف، وذلك أنه إذا أخبره استمال قلبه بذلك، واجتلب به وده، وإذا علم أنه محب قَبِلَ نصحه فيما دله عليه من رشد، ولم يرد قوله فيما دعاه إليه من صلاح خفي عليه[321].

ومنها: أن لا يقطع صديقا بعد أن صادقه، ولا يرده بعد أن قَبِلَه. قال أبو مَعْشَر[322]: سمعت محمد بن إسماعيل البُخَارِيّ[323] يقول: قال الخليل بن أحمد[324]: "لا تُوَاصِلَنَّ صديقا إلا بعد تجربة، فإذا صادقته فلا تقاطعه، فمؤمن بلا صديق خير من مؤمن كثير الأعداء".[325]

وقال حمدون القَصَّار: "اقبلوا إخوانكم بالإيمان، وردوهم بالكفر، فإن الله عز وجل أوقع ما بين هذين في مشيئته[326]، فقال: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 48]".[327]

---

[319] في الأصل: (الأسود) وهو خطأ. صوابه ما أثبته هنا. وكرب بفتح الكاف وكسر الراء، أما الباء فيجوز كسرها مع التنوين على الإضافة، ويجوز فتحها على البناء، وهما وجهان مشهوران فى العربية. والمقدام بن معدى كرب: هو بن عمرو بن يزيد بن معدى كرب الكندى. توفى بالشام سنة سبع وثمانين. انظر تهذيب الأسماء واللغات (113/2).

[320] رواه جماعة منهم أبو داود في سننه (5126) والترمذي في سننه (2392).

[321] انظر: معالم السنن للخطابي (149/4).

[322] هو: أبو مَعْشَر حَمْدَويْه بْن الخطّاب بن إبراهيم البخاري الضرير الحافظ الثقة مستملي أبي عبد الله الْبُخَارِيّ. انظر تذكرة الحفاظ للذهبي (179/2).

[323] هو: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبدا لله (194- 256 هـ). الإمام الحافظ صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري.

[324] هو: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (100- 170 هـ) من كتبه (كتاب العين).

[325] رواه السلمي في آداب الصحبة (53).

[326] في الأصل: (مسيته).

[327] انظر: آداب العشرة (29).

ومنها: التواضع وترك التكبر. لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى أوحى إلي أن: تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد»[328]. وكان [بَزَرْجَمْهَرُ][329] يقول: "النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها التواضع، والبلاء الذي لا يرحم صاحبه فيه العجب".[330] وسئل أبو عثمان عمن يعاشر الناس ولا يكرمهم ويتكبر عليهم؟ فقال: "ذلك لقلة رأيه وعقله، فإنه يعادي صديقه، ويكرم عدوه، فإن إخوانه في الله أصدقاؤه ونفسه عدوه".[331] وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[332].

وقال أبو الحسين الوَرَّاق[333]: سألت أبا عثمان[334] عن الصحبة فقال: "الصحبة مع الله تعالى بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول صلى الله عليه وسلم بملازمة العلم واتباع السنة، والصحبة مع الأولياء بالاحترام والخدمة،[335] والصحبة مع الإخوان بالبشر والانبساط، وترك الإنكار عليهم ما لم يكن خرق شريعته أو هتك حرمة، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: 199]، والصحبة مع الجهال بالنظر إليهم بعين الرحمة، ورؤية نعمة الله عليك، حيث لم يجعلك [مِثْلَهُمْ][336]، والدعاء لهم ليعافيهم[337] الله من بلاء الجهل".[338]

---

[328] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (7312) من حديث عياض بن حمار.

[329] في الأصل: (ابن المبرز)، صوابه ما أثبته هنا. وهو بَزَرْجَمْهَرُ بن البختكان الفارسي الْحَكِيم، كَانَ وَزِير أنوشروان.

[330] انظر: أدب الدنيا والدين (237).

[331] انظر: آداب العشرة (33).

[332] رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (32) من حديث أبي مالك الأشعري.

[333] هو: محمد بن سعد أبو الحسين الوراق، من كبار مشايخ نيسابور، ومن قدماء أصحاب أبي عثمان، وكان عالما بعلوم الظاهر، ويتكلم في دقائق علوم المعاملات وعيوب الأفعال. توفي قبل العشرين وثلاثمائة. انظر طبقات الصوفية (229).

[334] أي: الحيري، وقد سبقت ترجمته.

[335] في الرسالة القشيرية (82/1) زيادة: (والصحبة مَعَ الأهل بحسن الخلق).

[336] كلمة غير واضحة في الأصل، والمثبت من آداب الصحبة (59).

[337] في الأصل: (ليعافيه)،و الصحيح ما أثبته هنا. كما في آداب الصحبة (59).

[338] رواه البيهقي في شعب الإيمان (8108).

ومنها: حفظ المودة القديمة. لما روي أن امرأة دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فأدناها، فقيل له في ذلك، فقال: «إنها كانت تأتينا في أيام خديجة، وإن أحسن العهد من الإيمان»[339]. وقال جعفر الخُلْدِيّ: سمعت أبا [محمد][340] المُغَازِلِيّ يقول: "من أحب أن تدوم له المودة فليحفظ مودة إخوانه القدماء".[341] وقال القاسم بن محمد[342]: "قد جعل الله في الصديق البار عوضا من الرحم المدبر"[343].

ومنها: معرفة حقوق إخوانه، والقيام بحوائجهم. لما روى [الحسين بن][344] وَاقِدٍ، عن يحيى بن عَقِيْل، عن ابن أبي أوفى قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضي له حاجته»[345]. وقال جعفر بن محمد[346]: "إني لأسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني".[347] وقال محمد بن المُنْكَدِرِ[348]: "لم يبق من لذة الدنيا إلا قضاء حوائج الإخوان".[349]

---

[339] رواه الحاكم في المستدرك (40) من حديث عائشة.

[340] كذا في الأصل، وآداب الصحبة (63) والفتوة (61). ويقال: (أحمد). كما في صفة الصفوة (543/1) وتاريخ بغداد (421/14).

[341] انظر: آداب العشرة (32).

[342] هو: القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أبو محمد (37- 107 هـ): أحد الفقهاء السبعة في المدينة.

[343] انظر: آداب العشرة (34).

[344] ما بين المعقوفتين لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام السياق. لأن الراوي الحسين ولا واقد.

[345] رواه جماعة منهم ابن حبان في صحيحه (6423).

[346] هو: جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق (80-148 هـ). كان من أجلاء التابعين، أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. انظر الأعلام (126/2).

[347] انظر: إحياء علوم الدين (175/2).

[348] هو: محمّد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير (بالتصغير) بن عبد العزى القرشي التيمي (من بني تيم بن مرة) المدني (54- 130 هـ): زاهد، من رجال الحديث. أدرك بعض الصحابة وروى عنهم.

[349] انظر: آداب العشرة (57).

ومنها: حفظ أسرار إخوانه. لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود»[350]. وقال بعض الحكماء: "صدور الأخيار[351] قبور الأسرار".[352] وفي ذلك قال ابن المُعْتَزِّ[353]:

ومستودعي سِرًّا تبوأت كتمه * وأودعته صدري فصار له قبرا[354]

وزاد عليه آخر:

وما السر في قلبي كثاو [بقبره][355] * لأني أرى المقبور [ينتظر][356] النَّشْرَا

ولكنني أنساه حتى كأنني * بما كان منه لم أُحِطْ ساعة خُبْرَا

ولو [جاز][357] كتم السر بيني وبينه * عن السر والأحشا لم يعلم السرا.[358]

وقال أبو علي الحَكِيْمُ[359]: سمعت أبي يقول: "أفشى رجل إلى صديق له سرا من أسراره، فلما فرغ قال له: حفظته؟ قال: لا، بل نسيته".[360]

ومنها: الإيثار. قال الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [الحشر: 9]. وحكي: أنه سعي بالصوفية إلى بعض الخلفاء، وقالوا: إنهم يرفضون الشريعة،

---

350 رواه جماعة منهم الطبراني في الصغير (1186/292/2) من حديث معاذ بن جبل.

351 كذا في الأصل، والمشهور السائر: (الأحرار).

352 انظر: الرسالة القشيرية (206/1).

353 هو: عبد الله بن محمد المعتز باللّه بن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس (247- 296 هـ). من كتبه (الزهر والرياض).

354 انظر: قوت القلوب (376/2).

355 في الأصل: (بغيره)، والتصحيح من قوت القلوب (377/2).

356 لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام السياق، كما في قوت القلوب.

357 في الأصل: (كان)، والتصحيح من قوت القلوب (377/2).

358 انظر: قوت القلوب (377/2).

359 في الأصل: (الحليمي)، والمثبت من آداب الصحبة (75).

360 انظر: آداب العشرة (36).

وأخذ عنهم طبقة فيهم أبو الحسين النُّوْرِيّ[361]، فأمر بضرب أعناقهم، قال: فبادر أبو الحسين إلى السياف ليضرب عنقه، فقال له السياف: ما لك بادرت من بين أصحابك؟ فقال: أحببت أن أؤثر أصحابي بحياة هذه اللحظة. فكان ذلك سبب نجاتهم في حكاية طويلة.[362]

وكان أبو محمد الجُرَيْرِيّ يقول: "كمال الرجل في ثلاث: في الغربة، والصحبة، والفطنة. أما الغربة فلتذليل النفس، وأما الصحبة ليتخلق بأخلاق الرجال، والفطنة للتمييز[363]".[364] وكان يحيى بن مُعَاذٍ يقول: "الدنيا بأجمعها لا تَسْوَى[365] غَمَّ ساعة، فكيف بغم طول عمرك لها؟ وتقطع إخوانك بسببها مع قليل نصيبك منها؟".[366]

ومنها: المداهنة في الدين، مع قلة الخلاف والقيام بأعذار الإخوان، والذب عنهم والإنقاذ. قال الجُرَيْرِيّ: سمعت سَهْلَ بنَ عبدِ الله[367] يقول: "لا يشم رائحة الصدق عبد [داهن][368] نفسه أو داهن غيره". قال محمد بن أبي يزيد: سمعت [جُوَيْرِيَّةَ بنَ أَسْمَاء][369] يقول: "دعوت الله عز وجل أربعين سنة أن يعصمني من مخالفة الإخوان".[370] وقيل للجنيد: ما بال أصحابك يأكلون كثيرا؟ قال: "لأنهم لا يشربون الخمر، فيكون جوعهم أكثر". وقيل له: فما بالهم بهم قوة شهوة؟ قال: "لأنهم لا يزنون، ولا يدخلون تحت محظور". وقيل: فما بالهم لا

---

[361] هو: أَبُو الْحُسَيْن أَحْمَد بْن مُحَمَّد النوري: بغدادي المولد والمنشأ، بغوي الأصل، صحب السري السقطي وابن أَبِي الحواري، وَكَانَ من أقران الجنيد رحمه اللَّه، توفي سنة خمس وتسعين ومائتين. انظر الرسالة القشيرية (83/1).

[362] انظر: آداب العشرة (38).

[363] كذا في الأصل، وفي آداب العشرة: (للتمكين).

[364] رواه السلمي في آداب الصحبة (79) وانظر: آداب العشرة (38).

[365] كذا في الأصل، وفي آداب العشرة: (تساوي). وفي الزهد الكبير: (تستوي).

[366] رواه البيهقي في الزهد الكبير (314) والسلمي في آداب الصحبة (80).

[367] هو: سهل بن عبد الله بن يونس التُّسْتَرِيّ، أبو محمد: أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال. له كتاب في (تفسير القرآن). انظر الأعلام (143/3).

[368] لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام السياق، كما في الرسالة القشيرية وغيره.

[369] كذا في الأصل، وفي: آداب الصحبة (84): (جويرة بن إسماعيل). والله أعلم.

[370] رواه السلمي في آداب الصحبة (84). وانظر: آداب العشرة (40).

يطربون إذا سمعوا القرآن؟ قال: "ما في القرآن ما يوجب الطرب، وكلام الحق نزل بأمر ونهي ووعد ووعيد، فهو يقهر". قيل: فما بالهم يطربون عند القصائد؟ فقال: "لأنه مما عملته أيديهم" قيل: فما بالهم يطربون عند الرباعيات؟ قال: "لأنه كلام المحبين والعشاق"، قيل: فما بالهم محرومين من الناس؟، قال: "أنا لا أقول في هذا أشياء، ولكن قال أستاذنا محمد القصَّار[371] حين سئل عن ذلك فقال: "لثلاث خلال: أحدها: أن الله تعالى لا يرضى ما لهؤلاء. الثانية: أنه لا يرضى أن يجعل حسناتهم في صحائف غيرهم. والثالثة: أنهم لا يشيرون[372] إلا إلى الله، فمنحهم كل شيء سواه، وأفردهم به".[373]

ومنها: محبة الانبساط، ومجانبة الغضب، والتألف مع الإخوان. روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه كان ينبسط في مال أبي بكر رضي الله عنه كما ينبسط في ماله، ويحكم فيه كما يحكم في ماله»[374].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»[375]. قال السُّلَمِيّ: "أَعْلَمَ بهذا أن التباغض والتحاسد يسقطان عن درجة الأخوة، وأن [صحة][376] الأخوة وكرم الصحبة ما كان منزها [عن][377] هذه الخصال المذمومة، ولا يصح حسن العشرة إلا [بصحة][378] الأخوة". وقد تقدم التألف.

---

[371] في الأصل: (القصاب)، والتصحيح من آداب العشرة.

[372] كذا في الأصل، وفي آداب العشرة: (لم يسيروا) من السير.

[373] انظر: آداب العشرة (41).

[374] ذكره السلمي في آداب الصحبة (89)، وقد روى نحوه جماعة منهم ابن ماجه في سننه (94) من حديث أبي هريرة. بلفظ «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ، مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ».

[375] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (5718) من حديث أنس بن مالك.

[376] كذا في الأصل، وفي آداب الصحبة: (وصحبة).

[377] لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام السياق، كما في آداب الصحبة للسلمي (78).

[378] كذا في الأصل، وفي آداب الصحبة: (بصحبة).

ومنها: العفو عن هفوة تقع في النفس والمال. قال الله تعالى: ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ [النور: 22]، وقال: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ [البقرة: 237].

ومنها: طلاقة الوجه، والقيام بخدمة من دونه في المحل من الإخوان، فكيف بمن هو فوقه أو مثله؟. ويعلم أن سيد القوم خادمهم، روى جابر [قال][379] رسول الله صلى الله عليه وسلم: «[إن الله][380] تعالى يحب الطلق الوجه، ولا يحب العبوس»[381]. قال يحيى بن أَكْثَمَ[382]: "بتُّ ليلة عند المأمون[383] أمير المؤمنين، فانتبهت في جوف الليل وأنا عطشان، فتقلبت، فقال: يا يحيى ما شأنك؟ فقلت: عطشان، والله يا أمير المؤمنين. فوثب من مرقده، فجاءني بكُوْزٍ من ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين ألا دعوتَ بخادم؟ ألا دعوتَ بغلام؟ فقال: لا، حدثني أبي عن أبيه عن جده عن عقبة بن [عامر][384] رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيد القوم خادمهم»[385].

ومنها: أن يشارك إخوانه في المكروه كما يشاركهم في المحبوب، وأن يرعى لهم حق لحظه ولفظه، وأن لا يمن بمعروفه، ويستصغره، ويعظم ما إليه من إخوانه، ويستكثره.

وأنشد بعضهم:

خيرُ إخوانِك المشاركُ لك في الْمُرِّ * وأين الصديقُ في الْمُرِّ أَيْنَا؟

---

[379] في الأصل: (أن). والتصحيح من آداب الصحبة للسلمي (115).

[380] ما بين المعقوفتين لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام السياق. كما في آداب الصحبة (115) وآداب العشرة (49).

[381] رواه البيهقي في شعب الإيمان (7698) من حديث أبي هريرة بلفظ: " إِنَّ اللهَ يُحِبُّ السَّهْلَ الطَّلِيقَ ". وانظر: آداب العشرة (49).

[382] هو: يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسيدي المروزي، أبو محمد (159- 242 هـ).

[383] هو: عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس (170- 218 هـ).

[384] في الأصل: (علي) وهو تحريف، صوابه ما أثبته هنا. كما في آداب الصحبة. عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهنيّ (ت: 58 هـ)

[385] رواه السلمي في آداب الصحبة (117).

الذي إنْ حضرتَ سَرَّكَ بالوُدّ * وإن غبتَ كان سَمْعًا وعَيْنًا[386]

وعن حَمَّادِ بن زيدٍ[387] عن أَيُّوْبَ[388] قال: "إن الكريم ليرعى حق لفظه، ويحفظ حق لحظه".[389] وعن هِشَامِ بن عُرْوَةَ عن أبيه قال: كتب رجل إلى عبد الله بن جَعْفَرٍ رُقْعَةً، فجعلها تحت الوسادة التي يتكئ عليها، فقلب عبد الله الوسادة، فبصر بالرقعة، فقرأها، فردها في موضعها، وجعل مكانها كيْسًا فيه خمسة آلاف دينار، فجاء الرجل فدخل عليه فقال: اقلِبِ الرقعة، فانظر ما تحتها فخذه، فأخذ الرجل الكيس وخرج، وأنشد يقول:

زاد معروفُك عندي عَظِيًما * إنه عندك مَسْتُوْرٌ حَقِيْرُ

تتناساه كأن لم تَأْتِهِ * وهو عند الناس مشهورٌ كثير.[390]

ومنها: أن لا يقبل على إخوانه مقالة وَاشٍ ولا نَمَّام، والوفاء لهم في الحياة وبعد المات، وأن يكون شفقته على أخيه الموافق أكثر من شفقته على ولده. قال الخليل بن أحمد: "من نَمَّ إليك نم عليك، ومن أخبرَك بخبرِ غيرِك أخبرَ غيرَك بخبرِك".[391] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة قَتَّات»[392]. والقتات: هو الذي يتسمع الكلام من وراء حائل وينقله. وقال بعض الحكماء: "من لم يكن عنده وفاء لإخوانه فقد غُمَّ على [نفسه][393]".[394] وقال بعضهم: "قليل الوفاء بعد الوفاة أجل من كثيره وقت الحياة".[395] وكان الزُّبَيْر بن بَكَّار[396] يقول:

---

[386] أنشده المطرفي كما رواه السلمي في آداب الصحبة (118).

[387] هو: حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضميّ، مولاهم، البصريّ، أبو إسماعيل (98- 179 هـ)

[388] هو: أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، أبو بكر (66- 131 هـ): سيد فقهاء عصره. تابعي، من النساك الزهاد. رُوي عنه نحو 800 حديث.

[389] رواه السلمي في آداب الصحبة (119).

[390] رواه السلمي في آداب الصحبة (120).

[391] رواه السلمي في آداب الصحبة (121).

[392] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (5709) من حديث حذيفة.

[393] في الأصل: (نسبه)، والتصحيح من آداب الصحبة (123).

[394] انظر: آداب الصحبة (123).

[395] انظر: آداب الصحبة (92).

"ود أهل الوفاء وإن كان يسيرا حظٌّ جزيلٌ".[397] وكتب الأَحْنَفُ[398] إلى صديق له: "أما بعد: إذا قدم عليك أخٌ لك موافقٌ فليكن منك بمنزلة السمع والبصر؛ فإن الأخ الموافق أفضل من الولد المخالف، ألم تسمع الله تعالى يقول لنوح في ابنه: ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ [هود: 46]".[399] أنشد بعض الحكماء رحمه الله:

أبلِغْ أخَاك أخَا الإحسانِ بِي حُسْنًا * إنِّي وإنْ كنتُ لا ألقاهُ ألْقَاهُ

وإنَّ طَرْفِيَ موصولٌ برؤيتِهِ * وإن تباعَدَت عن مثوَايَ مَثْوَاهُ

الله أعلمُ أني لستُ أذكرُه * وكيف أذكر من لستُ أنساهُ[400]

ومنها: ستر عورات إخوانه، وإظهار مناقبهم، وكتمان قبائحهم، ويكون معهم يدا واحدا في جميع الأوقات. روي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَل المؤمنَيْن إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى»[401]. أنشد أحمد بن يحيى [ثَعْلَب][402]:

ثلاثُ خِلَال[403] للصديق جعلتُها * مضارعةُ الصومِ والصلواتِ

مواساتُه والصفحُ عن كلِّ زَلَّةٍ * وتركُ إسدَال السرِّ في الخَلَوَاتِ[404]

---

396 هو: الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكيّ، أبو عبد الله (172- 256 هـ): من أحفاد الزبير بن العوام.

397 رواه السلمي في آداب الصحبة (125).

398398 هو: الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرّي السعدي المنقري التميمي، أبو بحر (ت: 72 هـ).

399 رواه السلمي في آداب الصحبة (126).

400 رواه السلمي في آداب الصحبة (127).

401 رواه السلمي في آداب الصحبة (128).

402 في الأصل: (بن ثعلب)، صوابه ما أثبته هنا كما في آداب الصحبة (129). وأبو يحيى هو زيد. وأما ثعلب فهو أحمد بن يحيى. فتنبه.

403 كذا في الأصل، وفي آداب الصحبة: (خصال).

404 رواه السلمي في آداب الصحبة (129).

ومنها: أن لا يهجر أخاه بغضة، إلا أن يكون هجره له استبقاء لوده، والتودد إليه باصطناع المعروف والصفح عنه. عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا أو يعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[405]. وأنشد بعضهم:

هجرتُك لا قِلًى منّي ولكنْ * رأيتُ بقاءَ وُدِّك في الصُّدُوْدِ

كهجرِ الصَّائِمَاتِ[406] الوِرْدَ لَمَّا * رأَتْ أن الْمَنِيَّةَ في الوُرُوْد

تُفِيْضُ نفوسُها ظمأً وتَخْشَى * حَذَارًا[407] وَهْيَ تنظرُ مِنْ بَعِيْدِ

تَصُدُّ بوجهِ ذي البَغْضَاءِ عنهُ * وترمقه[408] بألحاظِ الوَدُوْدِ[409]

وقال صلى الله عليه وسلم: «اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس أهله، فإن لم تصب أهله فأنت أهله»[410]. وقد تقدم قول عمر: "من المعروف أن تلقى أخاك ببشر، وتسلم عليه، وتوسع له في مجلسه، وتدعوه بأحب أسمائه إليه، وتواسيه ببعض ما في يدك".[411] وأنشد ابن أبي النَّجْمِ:

اصنعِ الخيرَ ما استعطتَ إلى الناسِ * وإنْ كنتَ لا تحيطُ بِكُلِّهِ

فمتى تصنعُ الكثيرَ منَ الخيرِ * إذا كنتَ تاركًا لِأَقَلِّهِ[412]

---

[405] رواه جاماعة منهم البخاري في صحيحه (5727).

[406] كذا في الأصل وآداب الصحبة (97).

[407] كذا في الأصل، وفي أمالي الزجاجي (247) وزهر الأكم (274/2) وحياة الحيوان الكبرى (155/1): (حماما). وفي نهاية الأرب (325/9): (هلاكا).

[408] كذا في الأصل وغيره، وفي آداب الصحبة (97): (وترميه).

[409] رواه السلمي في آداب الصحبة (97) عن ابن خالويه.

[410] رواه جماعة منهم القضاعي في مسنده (747) من حديث علي بن الحسين.

[411] رواه السلمي في آداب الصحبة (42).

[412] رواه السلمي في آداب الصحبة (140).

ومنها: أن يدوم لإخوانه على حسن العشرة، وإن وقعت بينهم وحشة أو نفرة، ولا يفشي الأسرار في أيام صحبتهم، ولو بعد قطعهم وهجرهم، مع التغافل وقبول العذر ممن اعتذر إليه صادقا كان أو كاذبا.

ولبعضهم:

نَصِلُ الصديقَ إذا أرادَ وِصَالَنَا * ونصُدُّ عنه صدودَهُ أحيانَا

إِنْ صَدَّ عَنِّي كنت أكرمَ مُعْرِضِي * ووجدتُ عنه مذهبًا ومكانَا

لا مُفْشِيًا بَعدَ القطيعةِ سرَّهُ * بل كَاتِمٌ مِنْ ذاكَ ما اسْتَرْعَانَا

إنَّ الكريمَ إذا تقضى وُدُّه * كَتَمَ القبيحَ وأظهرَ الإِحْسَانَا[413]

ولبعضهم:

ليسَ الكريمُ الذي إنْ زَلَّ صاحبُه * بَثَّ الذي [كَانَ][414] من أسرارِه عِلْمَا

إن الكريمَ الذي تبقَى مودَّتُه * ويحفظُ السِّرَّ إِنْ صَافَى وإِنْ صَرمَا[415]

وقال جعفر بن محمد: "عظموا أقداركم بالتغافل".[416] وسمع أعرابي رجلا يقول في الناس فقال: "قد استدللت على عيوبك بكثرة ذكرك لعيوب الناس؛ لأن الطالب لها يطلبها بقدر ما فيه منها".[417]

ولبعضهم:

اقبَلْ مَعَاذِيْرَ مَنْ يأتِيْكَ مُعْتَذِرًا * إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فيمَا قَالَ أو فَجَرَا

فَقَدْ أطاعَك مَن أرضَاك ظاهرُهُ * وقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرَا[418]

---

[413] رواه السلمي في آداب الصحبة (143).

[414] سقط من الأصل، وزدته لإتمام السياق.

[415] رواه السلمي في آداب الصحبة (76) عن المطرفي. وانظر: الصداقة والصديق (277).

[416] انظر: البصائر والذخائر (241/7).

[417] انظر: آداب العشرة (56).

[418] رواه السلمي في آداب الصحبة (146) وانظر: آداب العشرة (56).

ومنها: رد جواب كتاب أخيك. روي عن ابن عباس أنه قال: "لا أرى لرد جواب الكتاب حقا كما أرى لرد جواب السلام".[419]

ومنها: أن لا يصوم إذا دعاه أخ له إلا بإذنه وإن نوى الصوم. عن أبي سعيد الخدري قال: صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما، فجاء هو وأصحابه، فلما وضع الطعام قال رجل من القوم: إني صائم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعاكم أخوكم، وتكلف لكم، أفطرْ ثم صُمْ يوما مكانَه إن شئت»[420]. وقال عبد الله بن مسعود: "كنا إذا فَقَدْنَا [الأَخَ][421] أتيناه، فإن كان مريضا كانت عيادةً، وإن كان مشغولا كان عونًا، وإن كان غير ذلك كانت زيارةً".[422]

وذكر البَغَوِيّ[423] بسنده عن علي رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية قوله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ [الزخرف: 67] في خليلين مؤمنين وخليلين كافرين، فمات أحد المؤمنين فقال: يا رب إن فلانا كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، وكان يأمرني بالخير، وينهاني عن الشر، ويخبرني أني ملاقيك يا رب، فلا تُضِلَّهُ بعدي، واهده كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني. فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما فيقول: لِيُثْنِ أحدكما على صاحبه، فيقول: نعم الأخ، ونعم الخليل، ونعم الصاحب. قال: ويموت أحد الكافرين فيقول: يا رب إن فلانا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشر،

---

[419] رواه البخاري في الأدب المفرد (1117).

[420] رواه السلمي في آداب الصحبة (163).

[421] لا يوجد في الأصل، وزده لإتمام السياق، كما في آداب الصحبة (165).

[422] رواه السلمي في آداب الصحبة (165).

[423] هو: الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء محيي السنة أبو محمد البغوي الشافعي (المتوفى : 516 هـ). من كتبه (شرح السنة).

وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فيقول: بئس الأخ، وبئس الخليل، وبئس الصاحب، فيقال: ﴿يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ [الزخرف: 68].[424]

وأما الأخوة في الله تعالى فهي خاصية الصحبة، ولهذا المعنى آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه. قال البخاري: "باب كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم"[425]. وقال عبد الرحمن بن عوف: "آخى النبي صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع لما قدمنا المدينة".[426] وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بين كثير من الصحابة، ذكرهم ابن هشام[427] في «السيرة» اختصرنا ذكرهم خوف التطويل.

قال الشيخ الإمام العالم القدوة عبد الله اليافعي[428] رحمه الله تعالى: اعلم أنه لم يبلغنا في كيفية الأخوة قول ولا فعل من جهة السنة، ولكن رأيت جماعة من أهل الخير والصلاح يأخذ بعضهم بيد بعض، ثم يقرأون قبل عقد الأخوة سورة والعصر، ثم يعقدونها عند قراءتهم: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر: 3] تبركا وتفاؤلا. ولعمري إن هذا حسن، ويعجبني أن يقرأ قبل السورة المذكور الفاتحة، وبعدها ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ [الزخرف: 67]. ثم يقول: اللهم اجعلنا من الأخلاء المتقين المتحابين بجلالك، المتنزهين في رياض بهاء نور جمالك، المستوجبين محبتك، المظلين بظل عرشك، الدائر عليهم كؤوس رَاح[429] المحبة، الخالدين في دار السعادة مع الأحبة، المجتمعين في دائرة الاصطفاء وحضرة أنسك، النازلين بمقعد صدق من حضيرة قدسك، الناظرين إلى وجهك الكريم،

---

424 رواه البغوي في تفسيره المسمى معالم التنزيل (168/4).

425 انظر: صحيح البخاري (1431/3).

426 انظر: صحيح البخاري (1431/3).

427 هو: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ)

428 هو: عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، عفيف الدين (698- 768 هـ): مؤرخ، باحث، متصوف، من شافعية اليمن. من كتبه (روض الرياحين في حكايات الصالحين). انظر الأعلام (72/4).

429 قَالَ اللَّيْث وَغَيره: الرَّاحُ: الخمْرُ. انظر تهذيب اللغة (142/5).

ووجه نبيك عليه أفضل الصلاة والتسليم آمين. ثم يقول أحدهما للآخر: قبلتني أخا في الله مع إسقاط الحقوق الواجبة علينا؟ فيقول: قبلت على ذلك. وقال أيضا: أدركت المتواخين في الله في أهل اليمن يقول الخاطب للمخطوب: قبلتني أخا في الله تعالى؟ انتهى.

وفي الخبر: «من آخى أخا في الله رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله»[430]. وروى الترمذي عن يزيدَ بن نَعَامَةَ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا آخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه، وممن هو؟ فإنه أوصل للمودة»[431]. وفيه دليل على استحباب المواخاة في الله.

واحذر أن تواخي مبتدعا. قال ابن شَوْذَبٍ[432]: "إن نعمة الله على الشاب إذا تنسك أن يواخي صاحبَ سنةٍ يحمله عليها".[433] قال عَمْرُو بن قَيْسٍ[434]: "إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فأَرْجِهْ، وإذا رأيته مع أهل البدعة فأَيْئَسْ منه؛ فإن الشاب على أول نُشُوْئِه".[435] فإذا أراد الله بعبد من عبيده خيرا أوقعه لمعاشرة أهل السنة وأهل الستر والصلاح والدين، ونزهه عن صحبة أهل الأهواء والبدع والمخالفين؛ فإنه روي عن النبي صلى الله عليه

---

430 رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان (26) من حديث أنس بن مالك، وسنده ضعيف. انظر تخريج أحاديث الإحياء للعراقي (612).

431 رواه جماعة منهم الترمذي في سننه (2392).

432 هو: عَبْد الله بْن شوذب البلخي ثُمَّ البصري ثُمَّ المقدسي أَبُو عَبْد الرحمن (86- 156 هـ). روى عَن الحسن ومحمد بْن سيرين، وعنه ابن المبارك وضمرة وجماعة. انظر تاريخ الإسلام (457/9).

433 رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (31) من طريق ضمرة عن ابن شوذب. وابن الجوزي في تلبيس إبليس (11).

434 هو: عمرو بن قيس الملائي أبو عبد الله الكوفي، ثقة زاهد، توفي سنة ست وأربعين ومائة. انظر إكمال تهذيب الكمال (249/10).

435 انظر: الإبانة لابن بطة (44). وفي الآداب الشرعية (577/3) نسب القول إلى الإمام أحمد بن حنبل.

وسلم أنه قال: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[436]. فانظر من تواخي ومن تصحب، واعرف أن كل إنسان بخِدْنِه[437]، وكل أحد بصاحبه. وأنشد بعضهم:

عن المرءِ لا تسألْ وسلْ عن قَرِينِه * فإن القرينَ بالمقارَنِ مُقْتَدِي[438]

وعن الشعبي قال: قال علي بن أبي طالب لرجل وقد ذكر له صحبة رجل:

لا تصحَبْ أَخَا الجهلِ ** وإيَّاك وإيَّاهُ

فكَمْ مِنْ جاهلٍ أَرْدَى ** حليمًا حينَ آخَاهُ

يُقَاسُ المرءُ بالمرءِ ** إِذَا مَا هو مَاشَاهُ

وللشيءِ مِنَ الشيءِ ** مقاييسٌ وأَشْبَاهُ

وللقلبِ على القلبِ ** دليلٌ حينَ يَلْقَاهُ.[439]

وقيل: "إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر إلى مقامه وأنه يلحق به".[440] قال بعض الرواة: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "ما أعطي عبد بعد الإسلام خير من أخ صالح".[441] وقال أيضا: "إذا رأى أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به، فقَلَّ من يصيب ذلك".[442] وقال بعض الحكماء في معناه كلاما منظوما:

ما نالتِ النفسُ على بغيةٍ * ألذَّ من ودِّ صديقٍ أمين

من فاته ودُّ أخ صالح * فذلك المقطوع منه الوتين[443]

---

436 رواه جماعة منهم أحمد في مسنده (8417) من حديث أبي هريرة.

437 في النهاية (15/2): الخِدْنُ والخَدِينُ: الصَّديق. اهـ

438 هذا البيت لعدي بن زيد العِبَادِيّ (المتوفى نحو 35 قبل الهجرة). انظر الأمثال (179) لابن سلام (ت: 224 هـ).

439 رواه السلمي في أداب الصحبة (9).

440 انظر: قوت القلوب (360/2).

441 أورده أبو طالب المكي في قوت القلوب (360/2).

442 أورده أبو طالب المكي في قوت القلوب (360/2).

443 أورده أبو طالب المكي في قوت القلوب (360/2).

قال صاحب «العوارف»[444]: "وقيل: إن الأخوين إذا دخل أحدهما الجنة يسأل عن منزلة أخيه، فإن كان دونه لم يدخل حتى يعطى أخوه مثله، فإن قيل له: لم يكن يعمل مثل عملك، فيقول: إني كنت أعمل لي وله، فيعطى جميع ما سأله لأخيه ويرفع أخوه إلى درجته".

وقال إبراهيم النخعي: "لا تقطع أخاك على ذنب، ولا تهجره، فإنه يفعل اليوم ويتركه غدا".[445] وكان بعضهم يقول: "لقاء الإخوان مسلاة للهَمّ، ومذهبة للأحزان".[446] وكان الحسن[447] وأبو قِلَابَةَ[448] يقولان: "إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا؛ لأن أهلينا يذكروننا الدنيا، وإخواننا يذكروننا الآخرة".[449] وقال أحدهما: "لأن الأهل والولد من آلة الدنيا، والإخوان في الله من آلة الآخرة". وقال أبو عُمَيْر الصُّوْرِيّ[450]: "كلمة لك من أخيك خير لك[451] من مال يعطيك[452]؛ لأن الكلمة تنجيك والمال يعطبك".[453] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى أو يرده بها عن ردى». رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[454]. وأنشد بعضهم:

همومُ رجالٍ في أمورٍ كثيرةٍ * وهَمِّيْ من الدنيا صديقٌ مساعدُ

---

[444] انظر: عوارف المعارف (251).

[445] أورده أبو طالب المكي في قوت القلوب (367/2).

[446] أورده أبو طالب المكي في قوت القلوب (367/2).

[447] هو: الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد (21- 110 هـ): تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه.

[448] هو: عبد الله بن زيد بن عمرو أبو قِلابة الجَرْمِيّ (ت: 104 هـ).

[449] أورده أبو طالب المكي في قوت القلوب (367/2).

[450] هو: أبان بن سليمان أبو عمير الصوري، وكان من عباد الله الصالحين. انظر الجرح والتعديل (1106).

[451] في الأصل: (خير لك من أخيك خير لك) لعل الصحيح ما أثبته هنا.

[452] كرر (خير لك) في الأصل.

[453] رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (199) وأورده أدب المجالسة وحمد اللسان (41) عن أبان بن سليمان أبي عمير الصوري.

[454] رواه جماعة منهم البيهقي في ضعب الإيمان (1764) من حديث عبد الله بن عمرو العاص.

تكون كروحٍ بين جِسمَيْن فُرِقَا * فجسما هما جسمَانِ والروحُ واحدُ[455]

ومن أدب الأخوة والصحبة: بشاشة الوجه، ولطف اللسان، وسعة القلب، وبسط اليد، وكظم الغيظ، وإسقاط الكبر، وملازمة الحرمة، وإظهار الفرح بما رزق من صحبته وأخوته.

قال يُوسُفُ بنُ الحُسَيْنِ[456]: سمعت ذا النون يقول: "ما خلع الله عز وجل على عبد من عبيده خِلْعَة أحسن من العقل، ولا قلّده قلادةً أجمل من العلم، ولا زينه بزينة أفضل من الحلم، وكمال ذلك التقوى".[457]

ومنها: الصبر على جفاء الإخوان، والسلام عليهم وقت السفر، لعل أن يكون لأحدهم حاجة في توجهه، ومعرفة من حق سبقه بالود. وأنشد أبو بكر بن دُرَيْدٍ[458] الأَزْدِيّ لبعض إخوانه:

أَخُوْكَ الذي لو جِئْتَ بالسيفِ عامدًا * لِتَضْرِبَهُ لم يَسْتَغِشْكَ[459] في الوُدِّ

ولَوْ جِئْتَ تدعُوْهُ إلى الموتِ لَمْ يَكُنْ * يَرُدُّكَ اتقَاءً[460] عليك من الوَجْدِ[461]

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا سافر أحدكم فليسلم[462] على إخوانه، فإنهم يزيدونه بدعائهم إلى دعائه خيرا»[463]. وعن بِلَالِ بنِ سَعْدٍ[464] قال: "من

---

[455] رواه ابن قدامة في المتحابين في الله (91) عن أَحْمد بن جَعْفَر بن سلم. ونسب في العقد الفريد (231/2) إلى أبي عبد الله بن عرفة. وفي صيد الأفكار (666) إلى علي بن أبي طالب.

[456] هو: يوسف بن الحسين بن علي، أبو يعقوب الرازيّ (ت: 304 هـ): زاهد صوفي، من العلماء الأدباء. كثير السياحة. كان شيخ الريّ والجبال في وقته. وفيهم من يصفه بالزندقة. وهو من أقران ذي النون المصري. انظر الأعلام (227/8).

[457] رواه السلمي في آداب الصحبة (27) وانظر: آداب العشرة (20).

[458] في الأصل: (الخير)، وهو تحريف، صوابه ما أثبته هنا. فالمراد بأبي بكر بن دريد هنا هو: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (223- 321 هـ) من كتبه (الاشتقاق).

[459] كذا في الأصل، وفي آداب الصحبة: (يستفتك).

[460] كذا في الأصل، وفي آداب الصحبة: (إبقاء).

[461] رواه السلمي في آداب الصحبة (173) عن أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي.

[462] في الأصل: (يسلم)، والمثبت من آداب الصحبة (179).

سبقك بالود فقد استرقك بالشكر".[465] ولما حضرت عَلْقَمَةَ العُطَارِدِيّ الوفاة دعا بابنه فقال: "يا بني، إن عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإذا صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤونة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإذا رأى منك حسنة عدّها، وإذا رأى منك سيئة سدّها، اصحب من إن سألت أعطاك، وإن سكتّ ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدّق قولك، وإذا حاولت أمرا أمرك، وإذا تنازعتما آثرك".[466]

ومنها: حسن البشر، وطلاقة الوجه له مع طيب الحديث، وإظهار السرور. وكان مِسْعَرُ[467] يقول:

مَنْ دَعَانا فأَبَيْنَا ** فله الفضلُ علينا

فإذا نحن أَتَيْنَا ** رَجَعَ الفَضْلُ إلينا.[468]

وجد مكتوب على باب قصر:

مَنْزِلُنَا هذا لمن [زارنا][469] * نحن سواءٌ فيه والطَّارِق

فمن أتانا فيه فليَحْتكِمْ * وربّنا الواسع والرازِق[470]

---

463 رواه السلمي في آداب الصحبة (179) من حديث أبي هريرة.

464 هو: بلال بن سعد ابن تميم، أبو عمرو الدمشقي، المذكر، واعظ أهل الشام وعالمهم. قال الأوزاعي: كان من العبادة على شيء لم نسمع أحدا قوي عليه، كان له كل يوم وليلة ألف ركعة. انظر تاريخ الإسلام (327/7).

465 رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (481).

466 رواه أبو طالب المكي في قوت القلوب (363/2).

467 في الأصل: (مشعر)، وهو تحريف، صوابه ما أثبته هنا. وهو مِسْعَرُ بنُ كِدَام بن ظهير الهلالي العامري الرؤَّاسي، أبو سلمة (ت: 152 هـ): من ثقات أهل الحديث، عنده نحو ألف حديث، وخرّج له الستة. انظر الأعلام (216/7).

468 رواه السلمي في آداب الصحبة (201) عن مسعر بن كدام.

469 كذا في الأصل، وفي آداب الصحبة: (أراده).

470 رواه السلمي في آداب الصحبة (203) عن أحمد بن عبيد الله الحرشي.

وقال السلمي: "ثم على كل جارحة من الجوارح أدب تختص به[471]؛ فأدب[472] النظر: أن ينظر إلى إخوانه نظر مودة ومحبة، يعرفها ومن حضر المجلس، ويكون نظره إلى محاسنه، وإلى أحسن شيء يبدو منه، وأن لا يصرف عنه بصره في وقت إقباله عليه وكلامه معه. وأدب[473] السمع: أن يستمع إلى حديثه استماع مشته لما يسمع، متلذذ به، وإذا كلمته لا تصرف بصرك عنه، ولا تقطع حديثه بسبب من الأسباب، فإن اضطرك الوقت إلى شيء من ذلك استعذرته فيه، وأظهرت له عذرك. وأدب[474] اللسان: أن تكلم إخوانك بما يحبون في وقت نشاطهم لسماع ما تكلمهم به، وتبذل لهم نصيحتك، وتدلهم على ما فيه صلاحهم، وتسقط من كلامك ما تعلم أن أخاك يكرهه من حديث وغيره، ولا ترفع عليه صوتك، ولا تخاطبه بما لا يفهم، وتكلمه بمقدار فهمه وعلمه. وآداب اليدين: أن تكون مبسوطة لإخوانه بالبر والمعونة، ولا يقبضها عنهم، وعن الإفضال عليهم، ومعونتهم فيما يستعينون به. وآداب الرجلين: أن يماشي إخوانه على حد التبع، ولا يتقدمهم، وإن قربه إلى نفسه تقرب إليه مقدار ما يعلم أنه يحتاج إليه، ثم يرجع إلى موضعه، ولا يقعد عن حقوق إخوانه، معولا على الثقة بإخوانهم، لأن فضيل بن عياض قال: "ترك قضاء حقوق الإخوان مذلة". ويقوم لإخوانه إذا أبصرهم مقبلين، ولا يقعد إلا بقعودهم، ويقعد حيث يقعدونه كذلك".[475]

أنشد منصورٌ الفقيهُ:

فلما بَصُرْنَا به مُقْبِلًا * حَلَلْنَا الحُبَا وابتدَرْنَا القِيَاما

فلا تُنْكِرَنْ قِيَامِي له * فإن الكريمَ يُجِلُّ الكِرَاما[476]

---

[471] كذا في الأصل، وفي آداب الصحبة: (آداب تختص بها).

[472] كذا في الأصل بالإفراد، وفي آداب الصحبة (فآداب) بالجمع.

[473] كذا في الأصل بالإفراد، وفي آداب الصحبة (فآداب) بالجمع.

[474] كذا في الأصل بالإفراد، وفي آداب الصحبة (فآداب) بالجمع.

[475] انظر: آداب الصحبة (122).

[476] انظر: آداب الصحبة (122).

واعلم أن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن، لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يمس لحيته في الصلاة فقال: «أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[477]. وقال الجنيد لأبي حَفْصٍ: أدبت أصحابك آداب[478] السلاطين؟ فقال: "لا يا أبا القاسم، ولكن حسن آداب[479] الظاهر عنوان حسن آداب[480] الباطن".[481] وكان النبي صلى الله عليه وسلم[482] «يحب معالي الأخلاق ويكره سَفْسَافَهَا».

وكما يجب عليه مراعاة ظاهره لصحبة الخلق وعشرتهم فإن مراعاة باطنه أولى؛ لأنه موضع نظر الله تعالى. ومراعاة باطنه وآدابها يكون[483] بملازمة الإخلاص، والتوكل، والخوف، والرجاء، والرضا، والصبر، وسلامة الصدر، وحسن الظن بجميع المسلمين، والاهتمام بأمورهم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من لم يهتم للمسلمين فليس منهم»[484]. فإذا تأدب في الباطن بهذه الآداب وتأدب في الظاهر بما ذكرنا رجونا أن يكون من المؤمنين الموقنين.[485]

---

477 ذكره الحكيم في نوادر الأصول (210/3) عن صالح بن محمد عن سليمان بن عمر عن ابن عجلان عن المقبري عن أبي هريرة، باسناد ضعيف، والمعروف أنه من قول ابن المسيب كما قاله المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (308/2). قلت: وقد رواه جماعة منهم ابن أبي شيبة في المصنف (6854) عن سعيد بن المسيب موقوفا عليه. وذكر في كنز العمال (22530) أنه رواه العكسري في المواعظ عن علي.

478 في الأصل: (أدب) بالإفراد، والمثبت من آداب الصحبة (207).

479 في الأصل: (أدب) بالإفراد، والمثبت من آداب الصحبة (207).

480 في الأصل: (أدب) بالإفراد، والمثبت من آداب الصحبة (207).

481 انظر: آداب الصحبة (207).

482 كذا في الأصل وآداب الصحبة، والحديث معروف أخرجه جماعة منهم الحاكم في المستدرك (151) عن سهب بن سعد الساعدي بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا».

483 كذا في الأصل، وفي آداب الصحبة: (أن تكون) وهو أحسن.

484 رواه جماعة منهم الطبراني في الأوسط (7473/270/7) من حديث حذيفة.

485 انظر: آداب الصحبة (125).

فصل:

في ذكر ترتيب الفقراء في أماكنهم التي يجتمعون، وهيئة الاجتماع

من ذلك: السكون، والسكوت، وهدوء الجوارح، والبشاشة، وطيب اللقاء، ودوام الأدب مع الحق عز وجل، والانفراد به، والحضور بين يديه. ثم الأدب مع المشايخ وإخوانه كل واحد بحسب حاله وقد تقدم. ولا ترفع فيه الأصوات بالحكايات الفارغات ولا غيرها، ولا يجري فيه ما لا يعني من القول والفعل؛ فإن مكان الفقراء سيماه وعلامته أهله، حيث يكون اجتماع شملهم مع الله، واكتفاؤهم به، واغتنام الأوقات في الأنس به، والحذر من كيفية أخرى مغايرة تدخل على القلوب، فتغير كيفية الأنس بالله عز وجل، وذلك لا يتم إلا بالصمت غالبا، والسكوت والسكون، وأن يكون الكلام مصلحته تترجح على مفسدته، مثل حاجة أو نصيحة أو كلام في فن الطريق همسا كمناجاة السر، لأنها أماكن الغنى بالله ودور الأولياء.

وينبغي مع ذلك أن يكون وظائف متعددة: وظيفة من تلاوة القرآن، ووظيفة من أذكار الصباح والمساء، ووظيفة في علم العبادات، ووظيفة في علم الطريقة، ووظيفة في مناقب الأبرار، ووظيفة في ذكر مطلق في بقية الأوقات، وإن حصل مع ذلك تفرقة في بعض الأوقات، فإن فائدتها أعظم من تفرقتها مع ملازمة الوقار ومكارم الأخلاق، والتواضع والخدمة، ونظافة المكان والثياب والماعون، وبيت المستراح، وغير ذلك والله أعلم.

فصل

وأما حسن الظن في الإخوان فاعلم أيها الأخ -وفقنا الله وإياك لطاعته، وجعلنا وإياك من أوليائه وحزبه-: أن الله سبحانه وتعالى من على عباده المؤمنين، وحثهم على التواصي بالحق عند قوله: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر: 3]. وقوله: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ [الزمر: 22] الآية أي: شرحه لقبول الحق، فعلامة سعادة العبد انشراح صدره للحق حيث كان، وعلامة شقاوة العبد ضيق صدره من قبول الحق. وقد قال تبارك وتعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: 10]. قال الزّجَّاجُ: "إذا كانوا متفقين في دينهم رجعوا باتفاقهم ورحمتهم وشفقتهم وتناصرهم وتعاضدهم بعضهم لبعض إلى أخوة النسب؛ لأنهم من أدم وحوى". انتهى كلامه[486]. وقوله تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾ [الفتح: 29]: متعاطفون فيما بينهم. سئل الجنيد عن الأخ فقال: "هو أنت في الحقيقة، إلا أنه غيرك بالشخص".[487]

فاعلم أن أخوة الإيمان أعظم وأبلغ من أخوة القرابة؛ ولهذا ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمُه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»[488]. وقوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ [التوبة: 71]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "بعضهم أولياء بعض في المحبة والرحمة".[489] وروى ابن أبي الدنيا[490] بسنده عن أبي هريرة رضي

---

[486] انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي (154/4)

[487] رواه السلمي في تفسيره (262/2).

[488] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (2310) ومسلم في صحيحه (6670).

[489] انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي (509/2).

[490] هو: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (208- 281 هـ).

الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أربع يشرُفُ بهن الإنسان يوم القيامة: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتحلم عمن جهل عليك»[491]. وبسنده أيضا عن علي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرجل المسلم لَيُدْرِكُ بالحلم درجةَ الصائم القائم، وإنه ليُكْتَبُ جَارًا وما يملك إلا أهلَ بيته»[492].

فينبغي للإخوان أن يكونوا فيما بينهم متعاملين بالحلم والعفو، وإن كلا منهم يرى لأخيه عليه الفضل فيما يعامله به، ولا يرى لنفسه على أحد من إخوانه حقا، فهذا لا تمل صحبته، وكلما طالت صحبته تأكدت مودته. قال الشيخ إبراهيم الأُرْمَوِيّ[493] قدس الله روحه: "من أضاع حقوق الإخوان وطالبهم بحقه فهو أحمق، ومن ترك مطالبتهم بحقه مع إضاعة حقوقهم فهو عاجز، ومن قام بحقوقهم وعذرهم في إضاعتهم لحقه فهو كريم، أعقل الناس من أقام أعذار الخلق، وقام لهم بما يجب عليه من الحق". انتهى كلامه. قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: 10] هو خبر بمعنى الأمر، أي: ينصر بعضهم بعضا، ويصدق بعضهم بعضا.

وأول ما ينبغي للأخ: أن يعامل إخوانه على قدر منازلهم، فيقدم شيخه الذي أرشده إلى الطريق الموصلة إلى ربه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك من أقامه شيخه، فهو بمنزلة الشيخ، وكذلك الخادم، ومن قدمه شيخه، ومن دونهم في المنزلة، فيعامل كل أخ على قدر قربه من شيخه، وتوقيره له، وخدمته له، ومواساته له بماله وبدنه، فلا ترى نفسك مقدما عليه، مع بخلك وجبنك، فهذا يدل على حُسَافَةِ[494] العقل، لكن كن ناصحا لهم، قليل الاعتراض عليهم، تكن منهم إن شاء الله تعالى.

---

[491] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (7).

[492] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (8).

[493] هو: إبراهيم بن عبد الله بن يوسف بن إبراهيم بن سليمان أبو إسحاق الأرمني، ويقال: الأُرْمَوِيّ، الشيخ الزاهد العابد؛ ولد سنة خمس عشرة وستمائة بجبل قاسيون، وتوفي سنة اثنتين وتسعين وستمائة. انظر فوات الوفيات (31/1).

[494] في تاج العروس (504/32): الحُسافَةُ: مَا تَناثَر من التَّمْر الفَاسِد. اهـ

وعلى الشيخ -أمده الله بعنايته- أن يعامل المريدين بالرفق، واللطف، واللين، وعدم الجفاء، كما ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه قال: "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فوا الله ما قال لي: أف قط، ولم يقل لشيء فعلته: لِمَ فعلت هذا؟ ولا لشيء لَمْ أفعله: أَلَا فعلت هذا؟".[495]

فإذا كان الشيخ مقتفيا لآثار النبي صلى الله عليه وسلم وهديه عامل إخوانه ومريديه بالسنة وسلامة الصدر، كما كان يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي، فيقول له عن أصحابه، فيقول: «لا توغروا صدري على أصحابي، خلوني أخرج إليهم سالم الصدر»[496]. وما ذاك -والله أعلم- إلا لأن الله نهى عن الظن، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم﴾ [الحجرات: 12]. قال ابن عباس رضي الله عنه: "نهى الله تعالى المؤمن أن يظن بأخيه المؤمن شرا".[497] وقال سعيد بن جُبَيْر: "هو الرجل يسمع من أخيه كلاما لا يريد به سوءا، أو يدخل مدخلا لا يريد به سوءا، فيراه أخوه المسلم، ويتبعه، فيظن سوءا".[498] فهذا منهي عنه. وقال الزجاج: "هو أن يظن بأهل الخير شرا".[499]

وقال الحسن البصري: "أمرهم الله تعالى باجتناب الظن كله، وأخبر أنه إثم كله، إلا ما كان منه حسنا تظنه بأخيك المسلم". فيقول الحسن: لم ينه عنه، بل هو محبوب، أن العبد يحسن الظن بإخوانه المؤمنين. فالظن السيئ هو إثم كله؛ ولهذا ثبت في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب

[495] رواه جماعة منهم أبو داود في سننه (4776).

[496] روى نحوه جماعة منهم أبو داود في سننه (4862) من حديث عبد الله بن مسعود. بلفظ : « لاَ يُبَلِّغْنِى أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِى عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ ».

[497] رواه ابن جرير في تفسيره (304/22).

[498] انظر: زاد المسير في علم التفسير (151/4).

[499] انظر: زاد المسير في علم التفسير (151/4).

الحديث»[500]. قال العلماء في تفسير هذا الحديث: الاحتراس من الناس بسوء الظن هو التحفظ منهم مما يذهب منه، مثل أن يقول: تركت بابي مفتوحا، خشيت العراق، ووضعوا النار إلى متاعي فخشيت عليه الحريق. يعني: حديث أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[501].

فينبغي للأخ المسلم إذا حدثه أخوه بشيء يوغر صدره على أخيه المسلم أو إخوانه إما أن يزجره حتى لا يقع مرة أخرى في مثلها، وإما أن يسمع ويحلم، ولا يحدث به أيضا، فإن الله تعالى قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ [الحجرات: 6] والغيبة منهي عنها. فإذا استغاب عندك شخص فلا تظن في المستغاب إلا خيرا، وأنه المستغيب عما ارتكبه من الإثم، فإن كان كما قال فقد استغابه، وإن لم يكن كما قال فقد بهتّه.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ظننتم فلا تحققوا»[502]. فإذا ظن العبد بأخيه المسلم سوء فلا يحقق، سواء كان قد سمعه عنه، أو ظنه من تلقاء نفسه فيما يستريبه. فما ظنه بأخيه المسلم من الظن السيء، ولم ينطق به، فذهب جماعة من المفسرين إلى [أنه][503] لا بأس به، وذهب طائفة من المفسرين إلى أنه يأثم بنفس الظن، وإن لم ينطق به. فأما أهل السوء والفسق المتظاهرين به قلنا: أن تظن بهم مثل الذي يظهر منهم. وأما المتستر أو من لم يظهر منه إلا الخير فلا تظن به إلا خيرا. فإن ظن ولم يستعمل ظنه ولم ينفذه بكلامه فلا إثم عليه فيه.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾ [الفرقان: 72] قال: "إذا أوذوا صفحوا".[504] قال أبو الدرداء لرجل: "هب عرضك لله عز وجل، فمن سبك أو شتمك

---

[500] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (4849) من حديث أبي هريرة.

[501] رواه جماعة منهم الطبراني في الأوسط (598/189/1).

[502] رواه ابن عدي في الكامل (509/5) من حديث أبي هريرة.

[503] لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام السياق.

[504] انظر: تفسير مجاهد (507).

أو قاتلك فدعه لله، فإذا أسأت فاستغفر الله".[505] وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "من حلم لم يفرط وعاش في الناس".[506] وعن الحسن في قوله: ﴿يمشون على الأرض هونا﴾ [الفرقان: 63] قال: "الهون في كلام العرب: اللين والسكينة والوقار".[507] وعنه أيضا في قوله: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ [الفرقان: 63] قال: "حلماء لا يجهلون، وإن جُهِلَ عليهم حلموا".[508] وعن أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ إلى قوله: ﴿عظيم﴾ [فصلت: 34-35] قال: "الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذبا فغفر الله لك، وإن كنت صادقا فغفر الله لي".[509] أنشد مِسْعَر بن كِدَام:

لا ترجِعَنّ إلى السفيهِ خِطَابَه * إلا جواب تحيةٍ حيّاكها

فمتى تُحَرِّكه تحرك جيفة * تزداد نتنًا ما أردت حراكها[510]

قال الأَعْمَشُ[511]: "السكوت جواب".[512] وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا جمع الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس، وهم يسيرون[513]، فينطلقون سراعا إلى الجنة، فتلقاهم الملائكة، فيقولون: إنا نراكم سراعا إلى الجنة فمن أنتم؟ فيقولون:

---

[505] انظر: تنبيه الغافلين (209).

[506] رواه العدني في الإيمان (51) والغساني في أخبار وحكايات (1).

[507] انظر: تفسير يحيى بن سلام (488/1).

[508] انظر: تفسير يحيى بن سلام (489/1).

[509] انظر: فتح القدير للشوكاني (593/4).

[510] انظر: محاضرات الأدباء (279/1). غرر الخصائص الواضح (137).

[511] هو: سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، أبو محمد، الملقب بالأعمش (61- 148 هـ).

[512] انظر: الآداب الشرعية (101/2).

[513] في الأصل: (يسير).

نحن أهل الفضل، فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلِمْنَا صبرنا، وإذا أسيئ إلينا غفرنا، وإذا جهل علينا حَلُمْنَا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين»[514].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "الحلم من الخِلَال التي ترضي الله عز وجل، وهو يجمع لصاحبه شرفَ الدنيا والآخرة، ألم تسمعوا الله عز وجل وصف نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ [هود: 75]".[515] وعن الحسن قال: "المؤمن حليم لا يجهل، وإن جهل عليه حلم، ولا يظلم، وإن ظلم غفر، ولا يقطع، وإن قطع وصل، ولا يبخل، وإن بُخِلَ عليه صبر".[516] وقال أيضا: "إن الله يحب الحليم الحَيِيَّ الغني المتعفف، ويبغض الفاحش البذي اللسان المُلْحِفَ".[517]

والمقصود أن الأخ ينبغي له أن يسامح أخاه فيما يصدر منه من غيبة وغيرها، ويتجاوز عنه، ويحلم عنه، ويحسن إليه؛ لأن هذه أسباب العز، وما زاد الله من عفا إلا عزا. كتب رجل إلى أخ له: "إن الحلم لباس العلم فلا تَعْرَيَنَّ منه".[518] وروي ابن أبي الدنيا بسنده عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بقوم خيرا[519] جعل أمرهم إلى حلمائهم، وفَيْئَهُمْ إلى سمحائهم، وإذا أراد بقوم شرا جعل أمرهم إلى سفهائهم، وفيئهم عند بخلائهم».[520]

ويجب على الأخ أن يحفظ لسانه عن الفحش من القول؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن سَبَّابًا، ولا فَحَّاشًا، ولا لَعَّانًا. هكذا روى أنس بن مالك رضي الله عنه[521]. روى

---

514 رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (56).

515 رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (57).

516 رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (61).

517 رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (54) من حديث عمرو بن دينار مرفوعا.

518 رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (74) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ.

519 في الأصل: (خير).

520 رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (75).

521 رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (105).

ابن أبي الدنيا بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذي»[522]. وبسنده أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما كان الفُحْشُ قط في شيء إلا شانه»[523]. وبسنده أيضا عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء يبلغ به قال: «إن الله تعالى يبغض الفاحش البذي»[524]. وبسنده أيضا عن جابر بن سمرة قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم قاعدا، وأبي أمامي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الفحش والتفحُّش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا»[525].

وسئل أنس بن مالك عن قول الله تعالى: ﴿إني لأظنك يا فرعون مثبورا﴾ [الإسراء: 102] قال: "مخالفا". قال: "الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسب".[526] وروى ابن أبي الدنيا عن زيد بن بُتَيْعٍ قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يكلم رجلا، فأغلظ له، فجعل الرجل يشتم أبا بكر، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس لا يرد عليه، فرد عليه أبو بكر، فقام النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: يا رسول الله يشتمني وأنت جالس فلم ترد عليه، فلما رددت عليه قمت؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كان الملك يرد عليه، فلما رددت عليه صعد الملك، فكرهت أن أتخلف بعده».[527] ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «ما تعدون الصرعة فيكم؟» قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: «ليس ذلك، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب».[528] وروى ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من

---

[522] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (321) من حديث عبد الله.

[523] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (333) من حديث أنس بن مالك.

[524] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (335).

[525] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (339).

[526] رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب، كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (344/5).

[527] انظر: تفسير السمعاني (5/ 82).

[528] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (5763) من حديث أبي هريرة.

كف غضبه ستر الله عورته»[529]. وعن سيعد بن أبي هند، أن عمر رضي الله عنه غضب يوما، فدعا بماء فاستنشق، وقال: «إن الغضب من الشيطان، وهذا يذهب بالغضب»[530].

وعن عكرمة في قوله: ﴿سيدا وحصورا﴾ قال: "السيد: الذي لا يغلبه غضبه".[531] وقال جعفر بن محمد: "الغضب مفتاح كل شر".[532] وعن أم الدرداء قالت: سمعت أبا الدرداء يقول: قلت يا رسول الله، دلني عمل يدخلني الجنة، قال: «لا تغضب».[533] رواه ابن أبي الدنيا. وروري أيضا بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كف لسانه ستر الله عورته، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره». وقال عوف: كان يقول: «اتقوا الغضب؛ فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل»[534]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمنا وإيمانا»[535] رواه ابن أبي الدنيا. وقال عمر[536] رضي الله عنه: «ما جرع عبد جرعة قط أحب إلى الله من جرعة غيظ»[537]. وقال ابن السَّمَّاك[538]: أذنب غلام لامرأة من قريش ذنبا، فأخذت السوط، ومضت نحوه، حتى إذا قاربته رمت السوط، وقالت: "ما تركت التقوى أحدا يشفي غيظه".[539]

---

[529] رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (36) من طريق عبد الله بن دينار.

[530] روى نحوه جماعة منهم أحمد في مسنده (17985) من حديث عطية.

[531] رواه ابن جرير في تفسيره (6979).

[532] انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي (236/2).

[533] رواه الطبراني في الأوسط (2353/25/3).

[534] رواه البيهقي في شعب الإيمان (8294) من حديث معاوية بن حيدة.

[535] رواه قوام السنة في الترغيب والترهيب (2366).

[536] كذا في الأصل.

[537] رواه جماعة منهم أحمد في مسنده (6114) من حديث ابن عمر مرفوعا.

[538] هو: عثمان بن أحمد بن عبيد الله بن يزيد، أبو عمرو الدقاق، ابن السماك (ت: 344 هـ): مسند بغداد.

[539] انظر: صفة الصفوة (113/2).

فينبغي للأخ أن يتوقى الغضب على أخيه؛ فإن غضب كظم وحلم، وأظهر البشر، فإن عجز توجه إلى أخيه بالدعاء بظهر الغيب، والإحسان له، والثناء عليه، فإن ذلك يرغم الشيطان ويذله. حكي عن بعض أهل الأدب قال: "لا ينبغي أن تزهد في أخيك لخلق أو خلقين تكرههما منه، إذا رضي سائر أخلاقه وحمد أكثر شيمه فإن اليسير مغفور، والكمال كالمعدوم، مع أن نفس الإنسان التي هي أخص النفوس به، ومدبرة باختياره وإرادته، لا تطيعه في كل ما يريد، فكيف نفس غيره؟ وحسبك أن تكون لك من أخيك أكثره، فلا سبيل إلى كمال المحاسن واجتماعها، وانتفاء المساوي وارتفاعها، ولكن من غلبت محاسنه على مساويه غفرت لمحاسنه المساوي التي فيه". قال بعض الحكماء: "طلب الإنصاف من قلة الإنصاف".[540] يعني: أن الطالب للإنصاف يطلب ما هو معدوم فيه من الإنصاف بما يقتضي الإنصاف. قال الشاعر[541]:

مِنْ قِلَّةِ الإِنْصَافِ أَنَّكَ تَبْتَغِي * [مُهَذَّبًا][542] في الدُّنْيَا ولستَ [مهذَّبا[543]][544]

وأيضا لا ينبغي أن توحشه نفرة يجدها منه، ولا يسيئ الظن ما لم يتحقق تغيره، وليصرف ذلك إلى رعونات النفوس؛ فإن الإنسان قد يفتر عن مراعات نفسه، ولا يكون عن عداوة لها، ولا ملل منها. قال جعفر الصادق لابنه: "يا بني، من أغضبت من إخوانك -ثلاث مرات- فلم يقل فيك سوءا فاتخذه لنفسك خِلًّا".[545] روى أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ قال: "الرضا بغير

---

[540] انظر: أدب الدنيا والدين (173).

[541] هو: ابن الرومي، كما في أدب الدنيا والدين (174).

[542] في الأصل: (مهدبا).

[543] في الأصل: (مهدبا).

[544] انظر: أدب الدنيا والدين (174).

[545] انظر: أدب الدنيا والدين (174).

عتاب".[546] وقال بعضهم: "الصفح بغير عتاب توبيخ".[547] وقال بعض الحكماء: "لا تكثر معاتبة إخوانك فيكون عليهم سخطك".[548] وقال بعضهم: "من حق الإخوان أن تستر زلتهم؛ لأن من رام بريئا من الهفوات سليما من الزلات رام أمرا مُعْوِزًا، واقترح صفوا معجزا".[549] وقيل لخالد بن صَفْوَانَ: أي خوانك أحب إليك؟ فقال: "من غفر زللي، وقطع عللي، وبلَّغني أملي"[550]. وقال الإمام الشافعي رحمه الله فيما رواه عنه صاحبه الرَّبِيْعُ:

أُحِبُّ من الإخوانِ كُلَّ مَوَاتِيْ * وكُلَّ غَضِيْضِ الطَّرْفِ عَنْ عَثَرَاتِي

يوافقني في كلِّ أمرٍ أريدُهُ * ويحفظُنِيْ حَيًّا وبعد وَفَاتِي

فمَنْ لِي بهذا لَيْتَ أَنِّي أَصَبْتُه * فقاسمته مَالِي مع الحَسَنَاتِ

تصفَّحْت إخواتي فكان أقلُّهم * على كثرةِ الإخوانِ أهلَ تِقَاتِي[551]

وقال أيضا:

"لعمرك ما الرَّزِيّة هدم دار ** ولا شاة تموت، ولا بعير

ولكن الرَّزِيَّة موت حر ** يموت لموته بشر كثير[552]

وكان ابن المبارك يتمثل بهذين البيتين:

وإذا صاحبتَ فاصحَبْ صَاحِبًا * ذَا حَيَاءٍ وعَفَافٍ وكَرَم

قولُه للشيء: لَا إن قلتَ: لَا * وإذا قلتَ: نعم قال: نَعَم[553]

وقال أبو إسحاق الشِّيْرَازِيّ[554]:

---

[546] انظر: تفسير السلمي (359/1).

[547] انظر: تفسير السلمي (359/1).

[548] انظر: أدب الدنيا والدين (178).

[549] انظر: أدب الدنيا والدين (178).

[550] انظر: أدب الدنيا والدين (178).

[551] انظر: أدب الدنيا والدين (179).

[552] انظر: أمالي القالي (272/1).

[553] انظر: الصداقة والصديق (114).

سألت الناسَ عَنْ خل وَفِيّ * فقالوا: ما إلى هذا سبيلُ

تمسَّكْ إنْ ظفرتَ بِوُدِّ حُرٍّ * فإن الحُرَّ في الدنيا قليلُ[555]

وقال غيره:

إذا مَا بَدَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ * فكُنْ أنتَ مُحْتَالًا لِزَلَّتِهِ عُذْرًا

أُحِبُّ الفَتَى يَنْفِي الفَوَاحِشَ سَمْعَهُ * كَأَنَّ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاحشةٍ وَقْرًا[556]

وكان طَلْحَةُ بنُ عبدِ الله[557] بن عَوْفٍ[558] -وكان أجود قريش في زمانه- قالت له امرأته[559]: ما رأيت أَلْأَمَ من إخوانك؟ فقال لها: مَهْ، ولِمَ قلتِ ذلك؟ قالت: أراهم إذا أَيْسَرْتَ لزموك، وإذا أعْسَرْتَ تركوك، فقال: "هذا واللهِ من كرمهم، يأتوننا عند القوة عليهم، ويتركوننا في حال ضعفنا عنهم".[560] قال بعض العلماء: "انظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل، حتى جعل قبيح فعلهم حسنا، وظاهره[561] وفاء، وهذا محض الكرم ولُبَاب الفضل".[562]

وقال أبو بكر الخَوَارِزْمِيّ[563]:

أراك إذا أَيْسَرْتَ خَيَّمْتَ عِندَنَا * مقيمًا وإنْ أَعْسَرْتَ زُرْتَ لِمَامَا

---

[554] هو: إبراهيم بن علي الفيروزاباذي أبو إسحاق الشيرازي (ت: 476 هـ) من أشهر كتبه: (المهذب) و (اللمع).

[555] انظر: رحلة الحافظ أبي طاهر السلفي إلى مدينة أبهر (62) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار (172).

[556] رواه العلائي في إثارة الفوائد المجموعة في الإشارة إلى الفرائد المسموعة (164/1) عن إسماعيل بن زيد.

[557] كذا في الأصل ونهاية الأرب (207/3) وغيره، وفي أدب الدنيا والدين (180): (عبد الرحمن). والذي أثبته هو الصواب.

[558] هو: طلحة بن عبد الله بْنُ عَوْفِ بْنِ عَبْدِ عَوْفِ بْنِ عَبْدِ بن الحارث بن زهرة. ولي المدينة. وكان سعيد بن المسيب إذا ذكره قَالَ: ما ولينا مثله. وكان سخيا جوادا. سمع من عمه عبد الرحمن بن عوف، ومن أبي هريرة، وابن عباس. وكان ثقة كثير الحديث. وتوفي بالمدينة سنة سبع وتسعين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. انظر الطبقات الكبرى (123/5).

[559] وهي: بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُطِيعٍ.

[560] انظر: أدب الدنيا والدين (180).

[561] كذا في الأصل، وفي أدب الدنيا والدين (180): (ظاهر غدرهم).

[562] انظر: أدب الدنيا والدين (180).

[563] هو: محمد بن العباس الخوارزمي، أبو بكر (323- 383 هـ): من أئمة الكتاب، وأحد الشعراء العلماء. كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب. وهو صاحب (الرسائل). انظر الأعلام (183/6).

فَمَا أنتَ إلَّا البدرُ إن قَلَّ ضوءُه * أَغَبَّ وإنْ زادَ الضياءُ أَقَامَا[564]

يقال: "فلان يزورنا لماما"، أي: في الأحانين.

وقال بعضهم: "طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بنفوسهم المزابل".[565] وقال بعضهم: "اصحب الصوفية؛ فإن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير، وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به".[566]

وقال بعضهم:

أَرَى كُلَّ [إنسانٍ][567] يَرَى عَيْبَ غيرِهِ * ويَعْمَى عن العيبِ الذي هُوَ فِيْهِ

ولا خيرَ فيمَنْ لَا يَرَى عيبَ نفسِه * [ويبدو له][568] العيبَ الذِي بأَخِيْهِ[569]

ولنرجع إلى ما كنا عليه من سوء الظن بالإخوان. قال النووي رحمه الله: "اعلم أن سوء الظن حرام مثل القول، فكما يحرم أن تحدث غيرك بمساوي إنسان، يحرم أن تحدث نفسك بذلك، وتسيئ الظن به. والمراد بذلك: عقد القلب وحكمه على غيرك بالسوء. فأما الخواطر وحديث النفس إذا لم يستقر ويستمر عليه صاحبه فمعفو عنه باتفاق العلماء؛ لأنه لا اختيار له في وقوعه، ولا طريق إلى الانفكك عنه. وهذا هو المراد بما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي عن ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل»[570]. قال العلماء المراد به: الخواطر التي لا تستقر. قالوا: وسواء كان ذلك الخاطر غِيْبَةً، أو كفرا أو غيره. وإنما الممكن اجتناب الاستمرار عليه، فلهذا كان الاستمرار وعقد القلب

---

564 انظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (270).

565 الذي رواه القشيري في رسالته (444/2) عن أبي علي الدقاق نصه: هَذَا طريق لا يصلح إلا لأقوام قَدْ كنس اللَّه بأرواحهم المزابل. اهـ

566 نقله القشيري في رسالته (442/2) عن حمدون القصار.

567 سقط من الأصل، وزدته لإتمام سياق البيت.

568 علامة الطمس والسواد في الأصل، والمثبت من ديوان المعاني (245/2) وعقلاء المجانين (53) وغيرهما.

569 انظر: ديوان المعاني (245/2) وعقلاء المجانين (53).

570 رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (6287) ومسلم في صحيحه (246) من حديث أبي هريرة.

حراما. ومهما عرض لك هذا الخاطر بالغيبة وغيرها من المعاصي وجب عليك دفعه بالإعراض عنه، وذكر التأويلات الصارفة له عن ظاهره". انتهي كلامه.[571]

وقال أبو حامد الغَزَالِيّ[572] رحمه الله في «الإحياء»[573]: "إذا وقع في قلبك ظن السوء فهو من وسوة الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق[574]، وقد قال الله تعالى: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ [الحجرات: 7]، فلا يجوز تصديق إبليس. فإن كان هناك قرينة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز إساءة الظن. ومن علامة إساءة الظن: أن يتغير قلبك معه عما كان عليه، فينفر عنه، ويستقله، ويفتر عن مراعاته وإكرامه، والاغتمام بسببه، فإن الشيطان قد يقرب إلى القلب بأدنى خيال مساوي الناس، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وذكائك وسرعة نباهتك، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وإنما هو على التحقيق ناطق بغرور الشيطان وظلمته. وإن أخبرك عدل بذلك فلا تصدقه ولا تكذبه؛ لئلا يسيئ الظن بأحدهما. ومهما خطر لك سوء في مسلم فزد في مراعاته وإكرامه؛ فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك مثله خِيْفَةً من اشتغالك بالدعاء له. ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة لا شك فيها فانصحه في السر، ولا يخدعنك الشيطان، فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه، فينظر إليك بعين التعظيم، وتنظر إليه بعين الاستصغار، ولكن اقصد تخليصه من الإثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخلك نقص". انتهى كلامه.[575]

---

[571] انظر: الأذكار النووية (344- 345).

[572] هو: محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام (450- 505 هـ) من كتبه (إحياء علوم الدين).

[573] انظر: إحياء علوم الدين (150/3).

[574] في الإحياء والأذكار: (أفسق الفساق).

[575] هذا النص ليس عبارة الإمام الغزالي في الإحياء (150/3)، وإنما هو منقول من عبارة الإمام النووي في الأذكار (345- 346) الذي نقلها من الإحياء بشيء من تصرف.

واعلم -أمدك الله بعنايته-: أن الله تعالى يبغض الظن السيء، وهو أن العبد يسيئ الظن بالله، فهذا محرم بإجماع العلماء، كما أن الواجب على كل أحد أن يحسن الظن بالله. وكذلك من الواجب أن يحسن الظن بإخوانه المسلمين الذين ظاهرهم الخير والعدالة. فإذا كان الله تعالى يحب حسن الظن من عباده، ويبغض ما يبغضه الله، فإن في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه»[576] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ثم ضرب الله تعالى للغيبة مثلا فقال: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا﴾ [الحجرات: 12] قال الزَّجَّاجُ: "ذكرك أخاك بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت".[577] قال القاضي أبو يَعْلَى[578] من أصحابنا: "وهذا تأكيد لتحريم الغيبة؛ لأن أكل لحم المسلم محظور، ولأن النفوس تَعافُه من طريق الطبع، ينبغي أن تكون الغيبة بمنزلته في الكراهة". انتهى كلامه[579]. قال الإمام العالم شرف الدين قاضي الجَبَل[580] رحمه الله: "﴿ميتا فكرهتموه﴾ [الحجرات: 12] طبعا فأكرهوه شرعا". قال النووي رحمه الله: "فأما الغيبة فهي ذكرك الإنسانَ بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خَلقه أو خُلقه أو ماله أو ولده أو زوجه أو خادمه أو مملوكه أو عمامته أو ثوبه، أو مشيته أو حركته أو بشاشته، أو خلاعته، أو عبوسته أو طلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابك، أو

---

[576] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (6685) والترمذي في سننه (1934).

[577] انظر: زاد المسير في علم التفسير (152/4).

[578] هو: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفَرَّاء، أبو يعلى (380- 458 هـ): عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون. من أهل بغداد. من كتبه (الأحكام السلطانية).

[579] انظر: زاد المسير في علم التفسير (152/4).

[580] هو: أحمد بن الحسن بن عبد الله بن قدامة، جمال الإسلام، شرف الدين، ابن قاضي الجَبَل (693- 771 هـ): شيخ الحنابلة في عصره. أصله من القدس، ومولده ووفاته في دمشق. من كتبه (الفائق). انظر الأعلام (111/1).

رمزمتَ أو أشرتَ إليه بعينك، أو يدك، أو رأسك ونحو ذلك".[581] ثم ذكر تفصيل ذلك. انتهى كلامه. والكلام في باب الغيبة يطول، وفيما ذكرنا كفاية، والله وأعلم.

وأما النميمة فهي[582] محرمة أيضا بإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ [الهمزة: 1] وقال: ﴿هماز مشاء بنميم﴾ [القلم: 11]. وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة نمام»[583]. متفق عليه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير -قال في رواية للبخاري[584]: بلى، إنه لكبير- أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»[585] متفق عليه.

قال العلماء: معنى «يعذبان في كبير» أي: كبير في زعمهما، أو كبير تركه عليهما.[586] قال الغزالي رحمه الله[587]: "النميمة إنما تطلق في الغالب على من ينمّ قول الغير إلى المقول فيه، كقوله: فلان يقول فيك كذا، وليست النميمة مخصوصة بذلك، بل حدها كشف ما يكره كشفه ،سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو ثالث. وسواء كان الكشف بالقول أو الكتابة، أو الرمز أو الإيماء أو نحوها. وسواء كان المنقول من الأقوال أو الأعمال. وسواء كان عيبا أو غيره، فحقيقة النميمة: إفشاء السر، وهتك الستر عما يكره كشفه. وينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما يراه من أحوال الناس، إلا ما كان في حكايته فائدة لمسلم، أو دفع معصية، وإذا كان يخفى ما لنفسه فذكره فهو نميمة".[588]

---

[581] انظر: الأذكار النووية (336).

[582] في الأصل: (فهو).

[583] رواه جماعة منهم مسلم في صحيحه (205) من حديث حذيفة.

[584] انظر: صحيح البخاري (5708).

[585] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (213) ومسلم في صحيحه (603).

[586] انظر: الأذكار النووية (337).

[587] انظر: إحياء علوم الدين (156/3).

[588] انظر: الأذكار النووية (348).

قال: "فكل من حملت إليه نميمة وقيل له: قال فيك فلان كذا، لزمه ستة أمور: الأول: أن لا يصدقه؛ لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر. الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه، ويقبّح فعله. الثالث: أن يبغضه في الله تعالى؛ فإنه بغيض عند الله تعالى، والبغض في الله واجب. الرابع: أن لا يظن في المنقول عنه السوء؛ لقول الله تعالى: ﴿اجتنبوا كثيرا من الظن﴾ [الحجرات: 12]. الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس، والبحث عن تحقيق ذلك، قال الله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ [الحجرات: 12]. السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النَّمَّامَ عنه، فلا يحكي نميمته. وقد جاء أن رجلا ذكر لعمر بن عبد العزيز رحمه الله رجلا بشيء، فقال عمر: "إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ [الحجرات: 6] وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هماز مشاء بنميم﴾ [القلم: 11]، وإن شئت عفونا عنك". قال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدا. ورفع إنسان رُقعةً إلى الصاحب بن عبّاد يحثه فيها على أخذ مال يتيم، وكان مالا كثيرا، فكتب على ظهرها: "النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمّره الله، والساعي لعنه الله، وملاك ذلك كله اللسان".[589]

قال النووي رحمه الله: "اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلاما تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير وغالب في العامة، والسلامة لا يعدلها شيء". انتهى كلامه.[590]

[589] المنقول هنا ليس نص الإمام الغزالي في الإحياء، وإنما نص الإمام النووي في الأذكار (348) المنقول من الإحياء. فتنبه.

[590] انظر: الأذكار النووية (332).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن العبد يتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ينزل بها إلى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[591] رواه البخاري ومسلم. ومعنى «يتبين»: يفكر في أنها خير أم لا.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»[592]. رواه البخاري ومسلم.

وعن بلال بن الحَارِث المدني رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه». رواه مالك في «الموطأ»[593] والترمذي[594] وابن ماجه[595]، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»[596]. رواه الترمذي. والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا.

وروي أن قُسَّ بنَ سَاعِدَة[597] وأَكْثَم بنَ صَيْفِي[598] اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف

---

[591] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (6112) ومسلم في صحيحه (7590) من حديث أبي هريرة.

[592] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (11) ومسلم في صحيحه (72) من حديث أبي موسى الأشعري.

[593] رواه مالك في الموطأ برواية يحيى (2818).

[594] رواه الترمذي في سننه (2319).

[595] رواه ابن ماجه في سننه (3969).

[596] رواه جماعة منهم الترمذي في سننه (2411) من حديث ابن عمر.

[597] هو: قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إياد (ت: نحو 23 ق هـ): أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية. طالت حياته وأدركه النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبّوة. انظر الأعلام (196/5).

عيب، ووجدت خصلة إن استعمتَلها[599] سترتَ العيوبَ كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان.[600]

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: "من عدّ كلامه من عمله قل كلامه [إلا][601] فيما لا يعنيه".[602] وقال الشافعي رحمه الله لصاحبه الرَّبيعِ: "يا ربيع، لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها".[603] وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان".[604] وقال غيره: "مَثَل اللسان مثل السَّبُعِ، إن لم توثقه عَدَا عليك".[605] وأنشدوا:

أقلِلْ كلامَك واستعذْ من شَرِّهِ * إن البلاءَ ببعضِهِ مقرونُ[606].

غيره:

كَمْ في المقابرِ مِنْ قتيلِ لسانِه * قد كانتْ تَهَابُ لقاءَه الشّجْعَانُ[607].

وقال الرِّيَاشِيّ[608]:

---

598 هو: أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث اابن مخاشن بن معاوية التميمي (ت: 9 هـ): حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين. عاش زمنا طويلا، وأدرك الإسلام، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق، ولم ير النبي صلّى الله عليه وسلّم وأسلم من بلغ المدينة من أصحابه. وهو المعنيّ بالآية الكريمة (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله). انظر الأعلام (6/2).

599 في الأصل: (استعملها)، والتصحيح من الأذكار النووية.

600 انظر: الأذكار النووية (335).

601 لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام السياق، كما في الرسالة القشيرية.

602 رواه القشيري في رسالته (250/1).

603 رواه النووي في الأذكار (335).

604 رواه النووي في الأذكار (335).

605 انظر: الأذكار النووية (335).

606 انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (41) أدب المجالسة وحمد اللسان (90).

607 انظر: بحر الدموع (125) الأذكار النووية (335).

608 هو: العباس بن الفرج بن علي بن عبد الله الرياشي البصري، من الموالي، أبو الفضل (177- 257 هـ): لغويّ راوية، عارف بأيام العرب. من كتبه: كتاب (الخيل). انظر الأعلام (264/3).

لَعَمْرُكَ[609] إن في ذنبي لَشُغْلًا * لنَفْسِي عن ذنوبِ بني أُمَيَّه

عَلَى رَبِّي حسابُهم إليهِ * تَنَاهَى علمُ ذلك لَا إِلَيَّه[610]

والمقصود أن الإخوان -أمدهم الله بعنايته- يكون اجتماعهم على الصفاء، والغالب حتى يكون اجتماعهم على الذكر تكون القلوب فيه خالصة سالمة من شوائب النقص، وهو سوء الظن والحسد، ليجدوا حلاوة الذكر والأنس به، وطهارة اللسان من الغيبة وكلام الفحش؛ لأن شأن الفقير التبدل، يعني: أنه يبدل بسوء الظن حسن الاعتقاد في أخيه، والرحمة له، والشفقة عليه، ويبدل الغيبة بالثناء على أخيه بظهر الغيب، وذكر محاسنه، والذب عن عرضه، لما روى أبو الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[611] رواه الترمذي، بحيث إذا قعدوا للذكر لا يكون وحشة ثم، وإن وجد أحد الإخوان عنده وحشة تدارك نفسه بالاعتذار، والإقرار على نفسه بما أضمر من الوحشة لأخيه، فإن كان أخوه عنده ما استوحش منه من نقص من دينه أو أدبه فيكرمه الرجوع عنه، وزوال ما عند أخيه، وذلك من المحبة؛ إذ المحب لا صبر له على نقيصة فيمن يحب.

وإن كانت الوحشة لأعراض النفس فله الرجوع على نفسه باللوم، والقيام عليها، وردها عن غيها، ليكون الاجتماع دائم الصفاء، وهذا الاجتماع الذي لا يمل أبدا. ولا يخلو إما أن يصحب من هو مثله في منزلته، أو من هو فوقه أو دونه. فالأدب مع من هو فوقه من أولي الصلاح الموصوف بالديانة: الاحترام والتواضع، والخدمة والإعانة، ويلقي جميع أحواله بسلامة الصدر، وترك الاعتراض بالقلب واللسان. والأدب مع من هو دونه من الإخوان: أن

---

[609] في الأصل: (لعمري)، والتصحيح من الأذكار النووية وغيره.

[610] انظر: الأذكار النووية (336).

[611] رواه جماعة منهم الترمذي في سننه (1931).

ينبهه على ما فيه من النقصان، وينصحه في السر دون العلانية. والأدب مع من هو مثله: الفتوة والإيثار والموافقة فيما يبدو منه ما لم يكن إثما.

فالصحبة في الدين والولادة المعنوية أولى من صحبة الدنيا والولادة الطبيعية. روي عن إبراهيم بن أَدْهَم[612] رحمه الله أنه صحبه رجل، فلما أراد أن يفارقه قال له الرجل: أرأيت أن فيّ عيبا؟ فنبِّه علي، فقال له إبراهيم: "إني لم أر منك عيبا؛ لأني لاحظتك بعين الوداد، فاستحسنت منك ما رأيت من عيبك، فسل غيري عن عيبك".[613] وفي معناه أنشدوا لعبدِ الله بن معاويةَ بن عبدِ الله بن جعفرِ بن أبي طالبٍ[614]:

ولست براءٍ عيبَ ذِي الوُدِّ كُلِّهِ * ولا بعضَ مَا فيهِ إذَا كُنْتَ رَاضِيَا

فعينُ الرِّضَى عنْ كلِّ عيبٍ كليلةٌ * ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا[615]

والمعتبر من خصال المواخاة أربع خصال: العقل، والدين، ومحمود الأخلاق، والرغبة في المواخاة. أما العقل فإنه يهدي إلى مراشد الأمور، والأحمق لا تثبت معه مودة، ولا تدوم لصاحبه استقامة. وأما الدين فهو المقصود الأعظم، والمحمود الخصال والشيم. وأما الخلق المحمود فلأن صاحبه مرضي الفِعال، مأمون الجانب في سائر الأحوال من الأذى والشرور. وأما الرغبة في المواخاة فلأن ذلك آكد في دوام الموالاة، وبقاء المصافاة؛ إذ ليس كل مطلوب طالبا، ولا كل مرغوب راغبا. قال العباس بن الأَحْنَفِ[616]:

فإنْ كانَ لَا يُدْنِيْكَ إلا شفاعةٌ * فلَا خيرَ في وُدٍّ يكونُ بِشَافِعِ

---

[612] هو: إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البلخي أبو إسحاق (ت: 161 هـ): زاهد مشهور.

[613] رواه القشيري في رسالته (458/2).

[614] هو: عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب (ت: 129 هـ): من شجعان الطالبيين وأجوادهم وشعرائهم.

[615] انظر: أدب الدنيا والدين (32).

[616] هو: العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفيّ اليمامي، أبو الفضل (ت: 192 هـ): شاعر غزل رقيق، قال فيه البحتري: أغزل الناس. انظر الأعلام (259/3).

فَأُقْسِمُ مَا تَرْكِيْ عِتَابَكَ عَنْ قِلًا * ولكنْ لِعِلْمِيْ أَنَّهُ غيرُ نافِعِ
وإِنِّيْ إِذَا لَمْ أَلْزَمِ الصَّبْرَ طَائِعًا * فَلَا بُدَّ مِنْهُ مُكْرَهًا غيرَ طَائِعِ[617]

وما أطلقوا من تأكد الحقوق للإخوان ينبغي أن يكون محمولا على من تأكدت أخوته، وقويت صحبته، وحسنت عشرته، وخلصت نيته، وصلحت سريرته، وهم على ثلاثة أقسام: قسم له أخوة أكيدة وثيقة، وصداقة صادقة حقيقة لقوة تميل في القلوب، وتألف، وتناسب بين الأرواح وتعارف، فهذا القسم له الصحبة الخاصة، والمزية والحقوق الأكيدة، والمنزلة العلية. وقسم فيه طرف صحبة، إلى جانب الصحبة جاذب، وله من بساط الانبساط ومقام التودد والتزود جانب، مميزا بذلك عن بعد منازل الأجانب، فهذا يجب له من الحقوق والوداد بقدر ما فيه من الموالاة وحسن الاعتقاد. وقسم متوسط بين هذين القسمين، فله منزلة بين المنزلتين، وسهم بين السهمين، وقيل: "إن قلب [الأحمق][618] في لسانه، ولسان العاقل في قلبه، فينبغي مقاطعة الحمقى والتوقي من صحبتهم".[619] وأنشدوا:

فما صاحبٌ يَجْنِيْ عَلَيْكَ مضرّةً * سوى أحمقٍ يَضُرُّك إِنْ جاءَ لِيَنْفَعَا

قال: "إذا أردت أن تواخي أخا فأغضبه، ثم دسّ إليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال: خيرا وكتم سرك فاصحبه".[620]

وأيضا ينبغي للأخ أن يصون لسانه عن القدح في أحبابه وأصحابه، يعني: أخيه، ومدح أعدائه، وهو أيضا مما يوغر الصدور. فكما ينبغي السكوت عن المساوي التي يسوء الإخوان ذكرها، ينبغي أن ينطق بالمحاسن التي يسرهم ذكرها، ويكون ذلك في حال غيبتهم، وكذا في حضرتهم إن لم يخش فتنتهم بعجب وغيره، ويبلغه ثناء من أثنى عليه، مع إظهار الفرح

617 انظر: أدب الدنيا والدين (169).
618 لا يوجد في الأصل، وزدته لإتمام السياق، كما في إحياء علوم الدين وغيره.
619 انظر: إحياء علوم الدين (179/2).
620 ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (378/2) والغزالي في الإحياء (179/2)من كلام أبي سعيد الثوري.

بذلك، وأن تذب عنه في غيبته إذا قصد بسوء، وتذكر منه ما تحب أن يذكر منك. قال مجاهد: "لا تذكر أخاك في غيبته إلا بما تحب أن تذكر به في غيبتك".[621] وقال آخر: "ما ذكرت أخا لي بعيب إلا صورته جالسا، فقلت فيه بما أحب أن يسمعه لو حضر".[622]

والوفاء لأخيك، وهو الثبات على الحب وإدامته إلى الموت وبعد الموت؛ فإن الحب إنما يراد في الآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط ذلك، وضاع السعي فيه، وهو سر قوله صلى الله عليه وسلم: «ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه»[623].

ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه. قال الشافعي رحمه الله: "إذا أطاع صديقُك عدوَّك فقد اشتركا في عداوتك".[624] وأن لا تكلف أخاك بما يشق عليه، بل يُزِيْحُ سره عن التعب في اعتنائه بمهماته.

ولا يستمد منه شيئا من جاه أو مال، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى، تبركا بدعائه، واستيناسا بلقائه، واستعانة به على دينه، وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه. قال بعض الحكماء: "من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا، ومن جعل نفسه مثل قدره تعب وتعبوا، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا".[625]

فاعرف يا أخي قدر نفسك، وأنزلها حيث هي، فكيف تطهرها وهي مدسوسة بعيوبها؟ مدنسة بأوصافها، مقبلة على غيها، معرضة عن طاعة ربها. أما في نفسك عبرة لك عن غيرك؟ ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ [البقرة: 44].

---

[621] انظر: إحياء علوم الدين (181/2).

[622] انظر: إحياء علوم الدين (181/2).

[623] رواه جماعة منهم البخاري في صحيحه (629) ومسلم في صحيحه (2344) من حديث أبي هريرة.

[624] انظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (138).

[625] انظر: إحياء علوم الدين (188/2).

يا ويحنا، ما أعمانا عن تزكية نفوسنا، ومولانا وسيدنا قد أخبر أن الفلاح في تزكيتها، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الشمس: 9] وقد خبنا إذ دسيناها بمعصية مولاه، ولهذا تجد أحدنا إذا توجه نحو طاعة من الطاعات لا يشرق في قلبه شيء من نور تلك الطاعة؛ إذ لكل طاعة نور يشرق في القلب بحسب تخليصها من شوائب النقص، وذلك لقلة تزكيتنا لنفوسنا، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

سؤال: إن قيل إن الله قد شهد بفلاح من زكى نفسه ونماها بماذا ينبغي للعبد أن يزكيها ويجاهد معها حتى يرتفع قدرها عند مولاها؟ أجاب ابن عَبْدُوْس[626] رحمه الله: "إن الله تعالى خلق النفس جاهلة بالعلوم، صَدِيَة[627] بالغفلة، مظلمة بالشهوة، ثم كلف صاحبها أن يصرف العناية إلى صلاحها، وإنقاذها من فلك الحيرة، وقعر بحر الظلمة، إلى أن يرقى بها إلى ساحل النجاة، ثم يغسلها في بحر المعرفة، وليس لها زكاة عند الله، ولا جاه ولا قيمة، إلا أن تغتسل في بحر المعرفة، فيزول عنها غبار الشك، ودرب الإفك، ثم يحليها بحلية المعاملة، فإذا خلصت من الكدورات وتحلت بالصفات الصافيات زكت وعلت. ألا ترى أن الحصى الجامد لا قيمة له، فإذا طحن وصفي ونخل وتجوهر اتخذ منه الزجاج الصافي، وعلت قيمته، والنحاس الساذج لا قيمة له، فإذا صقل وهندس وعمل منه اسطرلاب كدور الراحة جمع فيه الأفلاك السبعة، ذوات الأشكال والعجائب والهيئات، وأفيض عليه من رقوم الحساب والصنعة ما تميز به عن غيره علت قيمته، وطلبه الحكماء والعلماء، وكان قبل ظهور الفيض الهندسي مهملا، وهل النفس إلا قطعة صفر صدية؟ وهل العناية بإصلاحها وتهذيبها إلا صناعة هندسية لكنها إلهية؟ فارغب الآن في تزكية نفسك بالمعرفة بالله، وأخرجها من الظلمات إلى النور، فقد أفلح

---

[626] هو: علي بن عمر بن أحمد بن عمار، أبو الحسن، بابن عبدوس (510- 559 هـ): فقيه حنبلي مفسر، من أهل حران (بالجزيرة الفراتية). له "تفسير القرآن". انظر الأعلام (315/4)

[627] صَدٍ [مفرد]: ج صُداة، مؤ صَدِيَة، ج مؤ صَدِيات وصُداة: صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت من صدِيَ: شديد العطش. انظر معجم اللغة العربية المعاصرة (1285/2).

من زكاها وقد خاب من دساها، بإعراضه عن تقواها. فالآن إن أحببت نفسك أن تكون ملتحفة بالأنفس الصافية، مرتفعة في الدرجة العالية، متخلصة من الهاوية، فخذ بها من الغفلة إلى الذكر، وأخرجها من ظلمة الجهل، إلى نور العلم، واقْشَع عنها صدي الحرص بصقال القناعة والزهد، وجنبها مراتع الشهوات، فهي وخيمة المرعى، واسرح بها في رياض العلم والتقوى، وخلها من سوف ولعل وعسى، فمن زكاها بمحاسن الفضائل أفلح في الآخرة والأولى، ومن دساها في الرذائل خاب وهوي". انتهى كلامه.

ولنرجع إلى ما كنا عليه من اللطف بالإخوان، ومداراتهم والرفق. روى ابن أبي الدنيا بسنده عن القاسم بن محمد قال: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة، إنه من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا[628] والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة»[629]. وبسنده أيضا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تدرون من يحرم على النار؟ أو من تحرم عليه النار؟ كل هين لين سهل قريب»[630].

فالأخ ينبغي أن يعامل إخوانه بما يحب أن يعامل الله به، فهو يحب أن يعامله الله بالحلم والعفو والستر والإحسان والتجاوز عن الزلات. فنسأل الله مولانا وسيدنا أن يعاملنا بما هو أهله، ولا يعاملنا بما نحن له أهل، فإنه أهل التقوى والمغفرة، ونحن أهل الذنوب والعصيان. ونسأله من فضله أن يوفقنا للأخلاق الجميلة، وأن يجنبنا الأخلاق السيئة، وأن يجعلنا بما علمنا عاملين، وأن يوفقنا في أفعالنا وأقوالنا وأحوالنا لما يقربنا إليه، ولا يكلنا في شيء من أمورنا إلى أنفسنا، ولا إلى أحد غيره، وأن يجعلنا من أوليائه المتقين، ومن حزبه المفلحين، وأن يجعل

---

[628] في الأصل: (الدنيا الدنيا).

[629] رواه الحكيم في نوادر الأصول (162/1) وانظر: جزء فيه المنظوم والمنثور من الحديث النبوي (25) للبوشنجي. وقد روى نحوه جماعة منهم البخاري في الأدب المفرد (464) من حديث أبي الدرداء.

[630] رواه جماعة منهم ابن حبان في صحيحه (469).

أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة العظيمة الشريفة نهار الأحد، الثاني والعشرين من شهر شعبان المعظم قدره، سنة خمسة[631] وستين وألف، على يد أفقر العباد وأحوجهم إلى رحمة ربه الكريم البر الجواد الراجي عفو ربه العلي، العبد الفقير الحقير الذليل، الضعيف المسكين، أحمد بن علي الجبلي، غفر الله له ولوالديه، ولمشايخه وإخوانه، ولمن نظر أو ينظر في هذا الكتاب. والله تعالى أسأل أن ينفع به كل من نظر، وطالع فيه، ودعا لكاتبه، وقرأ له الفاتحة، ولجميع المسلمين والمسلمات أجمعين، والحمد لله رب العالمين.[632]

---

[631] كذا في الأصل.

[632] هذا آخر ما وجدته في النسخة الخطية التي اعتمدت عليها، وبهذا انتهيت من تحقيق هذا الكتاب، وذلك في صباح يوم الإثنين الموافق 25 رمضان 1441 هـ. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين آمين.

فهرس الموضوعات